قصة سبأ في القرآن الكريم

دروس وعِبَر

د. وليد محمد عبد العزيز الحمد

أستاذ مساعد في قسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية الأساسية

الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب – دولة الكويت

وقد وقف الأثريون على آثار القصص القرآني الشاهدة على الصدق التاريخي، مثل آثار سيل العرم الذي هدّم سد مأرب باليمن، فلا زالت آثار الجنتين الواقعتين عن يمين السد وشماله ماثلة حتى اليوم تؤكد صحة قصة سبأ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ [سبأ:١٥- ١٩] (١).

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن؛ وكانوا في أرض مخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم، وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم من البحر في الجنوب والشرق، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادي بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد، وتحكموا فيها وفق حاجتهم، فكان لهم من هذا مورد مائي عظيم. وقد عرف باسم « سد مأرب »(٢).

لكنهم لم يشكروا نعمة الله، فجحدوا وبطروا وكفروا بالله تعالى، وكذّبوا رسله، فجاءهم العقاب من الله تعالى، فهدم السيل سدهم، وأغرق أرضهم، فتحولت من جنان وارفة وخضرة ناضرة إلى خراب ودمار، وتحول أهلها عن الأرض والديار، وتلك عاقبة الظالمين.

ومن نعم الله ولطفه بالناس عموما – وبالعرب خصوصا – أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة(٣).

وسوف أحاول في هذا البحث أن أتناول قصة قوم سبا في القرآن الكريم مستخلصا ما فيها من دروس وعبر، مبتعدًا – غالبا– كثيرا عن التفصيلات التي لم ترد في القرآن والسنة، إذ لو كان لمعرفتها عظيم فائدة لوردت، وإنما العبرة بما في القصة من مقاصد ومعان ودروس وعظات.

وقد اقتضى البحث أن تشمل خطة الدراسة فيه ما يلي:

– مقدمة

– مناسبة القصة لما قبلها من السورة

– زمن القصة

(١)د . عبد الراضي محمد عبد المحسن: الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، جـ١، ص:٧٧.

(٢)سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق– القاهرة، ١٣٩٥هـ١٩٧٥م، جـ٦، ص: ١١٦.

(٣)عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م، جـ١، ص: ٦٧٧.

– أصل سبأ

– بناء سد مأرب

– قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ...﴾ [سبأ:١٥]

– قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ... ﴾ [سبأ:١٦-١٧]

– قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا... ﴾[سبأ : ١٨]

– قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا... ﴾[سبأ : ١٩]

– الخاتمة

وأرجو من الله تعالى أن نكون قد وفقنا في تناولنا المتواضع لتفسير هذه الآيات، وما كان فيه من جهد وتوفيق فمن الله سبحانه فله الحمد والشكر، وبفضل توجيهات ونصائح أساتذة كرام جزاهم الله خيرًا، وما كان فيه من نقص وتقصير فمن نفسي، وأرجو أن يحظى بالرضا، والقبول، وأن يكون لبنة في صرح الدراسات الإسلامية ، وأن يكون فيه النفع لنا، ولسائر المسلمين.

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د. وليد محمد عبد العزيز الحمد

مناسبة القصة لما قبلها من السورة

هذه القصة تحكي قصة قوم أنعم الله عليهم، وأرسل إليهم الرسل، فكفروا وعصوا، فانتقم الله منهم، وهي مَثَل ضربه الله تعالى لقريش، ليعلموا أنهم مثلهم إن كفروا، وقد جاءت عقب الحديث عن آل داود وهم مَثَل للشاكرين لنعمة الله تعالى، لتكون الصورة متكاملة للشاكرين الحامدين والكافرين الجاحدين، يقول الألوسي: "لما ذكر عز وجل حال الشاكرين لنعمه المنيبين إليه تعالى ذكر حال الكافرين بالنعمة المعرضين عنه جل شأنه موعظة لقريش وتحذيراً لمن كفر بالنعم وأعرض عن المنعم" (١).

وفي مناسبة الآيات وكونها مثلا ضُرِبَ للمشركين يقول ابن عاشور: "جرَّ خبرُ سليمان عليه السلام إلى ذكر سبأ لما بين مُلك سليمان وبين مملكة سبأ من الاتصال بسبب قصة «بلقيس»، ولأن في حال أهل سبأ مضادة لأحوال داود وسليمان، إذ كان هذان مثلاً في إسباغ النعمة على الشاكرين، وكان أولئك مثلاً لسلب النعمة عن الكافرين،

(١)أبو الفضل محمود الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، جـ ١٦، ص: ٢٨٠.

وفيهم موعظة للمشركين إذ كانوا في بحبوحة من النعمة فلما جاءهم رسول من المُنعِم عليهم يذكرهم بربهم ويوقظهم بأنهم خاطئون إذ عبدوا غيره، كذّبوه وأعرضوا عن النظر في دلالة تلك النعمة على المنعم المتفرد بالإلهية... فهذه القصة تمثيل أمة بأمة، وبلاد بأخرى، وذلك من قياس وعبرة، وهي فائدة تدوين التاريخ وتقلبات الأمم كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣] فسوق هذه القصة تعريض بأشباه سبأ"[١].

ويقول أيضا: "كانت قصة سبا قد ضُربت مثلاً وعبرة للمشركين من قريش، وكان في أحوالهم مثيل لأحوال المشركين في أمن بلادهم وتيسير أرزاقهم وتأمين سبلهم في أسفارهم، مما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص: ٥٧] وقوله: ﴿ لإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش: ١] إلى آخر السورة، ثم فيما قابلوا به نعمة الله بالإشراك به وكفران نعمته وإفحامهم دعاة الخير الملهَمين من لدنه إلى دعوتهم، فلما تقضى خبرهم لينتقل منه إلى تطبيق العبرة على من قصد اعتبارهم انتقالاً مناسبته بينة، وهو أيضاً عَوْد إلى إبطال أقوال المشركين، وسيق لهم من الكلام ما هو فيه توقيف على أخطائهم، وأيضاً فلما جرى من استهواء الشيطان أهل سبأ فاتبعوه، وكان الشيطان مصدر الضلال وعنصر الإشراك أعقب ذكره بذكر فروعه وأوليائه"[٢].

وقال ابن عطية: "هذا مثل لقريش بقوم أنعم الله عليهم وأرسل إليهم الرسل فكفروا وعصوا، فانتقم الله منهم، أي فأنتم أيها القوم مثلهم"[٣].

ويمكننا أن نقارن بين آل داود الذين تذكروا دائما فضل الله عليهم ورحمته بهم، وهجوا بحمد الله تعالى على

(١)محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس، د.ت، جـ١١، ص: ٣٦٧.

(٢)أبو الفضل محمود الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: دار إحياء التراث العربي ج ١١ ص ٣٨٢.

(٣)عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المجمع العلمي بفاس- المغرب، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٥هـ، جـ ٥، ص: ٣٤٣.

ما أولاه من النعم وأسداه من الكرم، ووظفوا تلك النعم في نشر الحق والفضيلة في أرجاء الأرض، وبين قوم سبأ الذين اغتروا بجنتيهم وجحدوا النعمة، وتمادوا في الضلال.

وفي مناسبة ذكر قصة سبأ بعد ذكر آل داود يقول الرازي:" لما بيَّن الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه بحكاية أهل سبأ"[١].

ويقول البقاعي: " ولما دل سبحانه بقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم ﴾ الآية [سبأ : ٩]، على قدرته على ما يريد من السماء والأرض لمعاملة من يريد ممن فيهما بما يشاء من فضل على من شكر، وعدل فيمن كفر، ودل على ذلك بما قصه من أخبار بعض أولي الشكر...، أتبعه دليلاً آخر شهودياً على آية ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ ﴾ [سبأ : ٩] في قوم كان تمام صلاحهم بسليمان عليه الصلاة والسلام، فاختل بعده أمرهم، وصار من عجائب الكون ذكرهم، حين ضاع شكرهم، فكان من ترجمة اتباع قصتهم لما قبلها أن آل داود عليه السلام شكروا، فسخر لهم من الجبال والطير والمعادن وغيرها ما لم يكن غيرهم يطمع فيه، وهؤلاء أضاعوا الشكر فأعصى عليهم وأضاع منهم ما لم يكونوا يخافون فواته من مياههم وأشجارهم وغيرها، فقال تعالى مشيراً بتأكيده إلى تعظيم ما كانوا فيه، وأنه في غاية الدلالة على القدرة، وسائر صفات الكمال، وأن عمل قريش عمل من ينكر ما تدل عليه قصتهم من ذلك"[٢].

(١)فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار الفكر بيروت، ١٤٠٥ هـ، جـ ١٢، ص: ٤٠٩.

(٢)برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية بيروت، ج ٦، ص: ٤٨٤.

زمن القصة

بداية نشير إلى أن زمن تلك القصة كان بعد زمن نبي الله سليمان عليه السلام، وقيل إن أصحابها كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وإلى ذلك يشير أبو حيان في تفسيره، فيقول: " عن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم" (١).

ويرجح صاحب الظلال أن قصة سبأ هذه كانت بعد قصة سليمان وبلقيس، فيقول: "وقد مضى في سورة النمل ما كان بين سليمان وبين ملكتهم من قصص، وهنا يجيء نبؤهم بعد قصة سليمان، مما يوحي بأن الأحداث التي تتضمنها وقعت بعد ما كان بينها وبين سليمان من خبر. يرجح هذا الفرض أن القصة هنا تتحدث عن بطر سبأ بالنعمة وزوالها عنهم وتفرقهم بعد ذلك وتمزقهم كل ممزق، وهم كانوا على عهد الملكة التي جاء نبؤها في سورة النمل مع سليمان في ملك عظيم، وفي خير عميم، ذلك إذ يقص الهدهد على سليمان: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٢٣، ٢٤]، وقد أعقب ذلك إسلام الملكة مع سليمان لله رب العالمين. فالقصة هنا تقع أحداثها بعد إسلام الملكة لله؛ وتحكي ما حل بهم بعد إعراضهم عن شكره على ما كانوا فيه من نعيم" (٢).

وهناك رواية أخرى في وصف السد وتاريخ بنائه نقلها القطان في تفسيره، فقال: "كان سد مأرب من أعظم السدود التي تجمع المياه في اليمن، وكان يسقي مساحة كبيرة قدرها المؤرخون والخبراء بنحو ثلاثمائة ميل مربع.

وكانت مدينة مأرب أغنى المدن القديمة في جنوب شبه الجزيرة العربية ومن أهم المراكز لحضارة وثقافة قديمتين، يرجع تاريخهما إلى ما قبل ثلاثة آلاف عام مضت. وكانت محطة استراحة لرحلات طويلة لقوافل التصدير التي كانت تنقل المنتجات الزراعية والصناعية كالبخور واللبان والدارصيني والمُرّ والقرنفل والبلسم وسائر العطور، وكذا الصمغ والقرفة ثم الأحجار الكريمة، والمعادن... وعلى مسافة كيلومترين إلى الجنوب من مدينة مأرب يقوم أحد روائع الفن اليمني

(١)أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي: البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط٢، ١٤١١هـ، جـ ٩، ص: ١٩٥.

(٢)في ظلال القرآن، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ١١٦.

القديم وهو معبد « المقه »، ومعناه في لغة سبأ « الإله القمر »، ويطلق عليه المؤرخون: عرش بلقيس. وهو بناء ضخم على شكل مثلث لا يزال محتفظا برونقه الزاهي ومظهره المصقول، ويبلغ قُطره نحو ألف قدم، ولا تزال بعض أعمدته قائمة حتى اليوم. ولا تزال آثار السد باقيةً إلى الآن، ويرجع تاريخ بنائه إلى ما قبل ٢٧٠٠ عام، وقد بناه سبأ الأكبر حفيد جد العرب يعرب بن قحطان (١).

أصل سبأ

سبأ كما ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو اسم لأبي اليمن، وقد روى الطبري هذا الحديث من ثلاث روايات، فقال:

- **حدثنا أبو كريب** قال ثنا وكيع عن أبي حيان الكلبي عن يحيى بن هانىء عن عروة المرادى عن رجل منهم يقال له: فروة بن مسيك قال: قلت يا رسول الله أخبرني عن سبأ ما كان؟ رجلا كان أو امرأة، أو جبلا أو دواب؟ فقال: "لا كان رجلا من العرب وله عشرة أولاد؛ فتيمن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تيمنوا منهم فكندة وحمير والأزد والأشعريون ومذحج وأنمار الذين منها خثعم وبُجَيلة، وأما الذين تشاءموا؛ فعاملة وجُذام ولخم وغسَّان".

- **حدثنا أبو كريب** قال ثنا أبو أسامة قال ثني الحسن بن الحكم قال ثنا أبو سَبْرة النخَعي عن فروة بن مسيك القُطَيْعي قال: قال رجل يا رسول الله: أخبرني عن سبأ ما هو؟ أرض أو امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولَدَ عشرة من الولد؛ فتيامن ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تشاءموا فلخم وجُذام وعاملة وغسان، وأما الذين تيامنوا فكندة والأشعريون والأزد ومذحج وحمير وأنمار"، فقال رجل: ما أنمار؟ قال: "الذين منهم خثعم وبجيلة".

- **حدثنا أبو كريب** قال ثنا العَنْقزي قال أخبرني أسباط بن نصر عن يحيى بن هانىء المرادي عن أبيه أو عن عمه(أسباطٌ شك) قال: قدم فروة بن مسيك على رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم فقال: يا رسول الله أخبرني عن سبأ أجبلا كان أو أرضًا؟ فقال: "لم يكن جبلا ولا أرضًا ولكنه كان رجلا من العرب (٢).

(١)ملخص عن اليمن عبر التاريخ، نقلا عن: عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد القطان: الدرر في تفسير القرآن، جـ ٣، ص: ١٢١دائرة المعارف الإسلامية ١٦٨/١١ مادة سبا ط أنتشارات والتحديد الزمني الدقيق لأحداث قصة سبا في دائرة المعارف في الخمسة الأولى قبل الميلاد.

(٢)أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق : أحمد محمد شاكر،

- **ورواه الترمذي في سننه:**
عن أبي كُرَيْب وعبد بن حميد قالا أخبرنا أبو أسامة عن الحسن بن الحكم النخعي، قال حدثني أبو سَبْرة النخَعي عن فروة بن مسيك المرادي قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم؟ فأذن لي في قتالهم وأمرني، فلما خرجت من عنده سأل عني: ما فعل الغطيفي؟ فأُخبر أني قد سرت، فأرسل في أثري، فردني، فأتيته وهو في نفر من أصحابه، فقال: "ادع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك". قال: وأنزل في سبأ ما أنزل، فقال رجل: يا رسول الله، وما سبأ؛ أرض أو امرأة؟ قال: "ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، فتَيَامَنَ منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا فلخم وجُذام وغسان وعاملة، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار"، فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: "الذين منهم خثعم وبجيلة". وروي هذا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب [1].

- **ورواه أبو داود في سننه قال:**
حدثنا عثمان بن أبي شيبة وهارون بن عبد الله قالا: حدثنا أبو أسامة حدثني الحسن بن الحكم النخَعي عن فروة بن مسيك الغطَيْفي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر الحديث، فقال رجل من القوم: يا رسول الله: أخبرنا عن سبأ ما هو؟ أرض أم امرأة؟ فقال: ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولَدَ عشرة من العرب. قال: عثمان الغطفاني مكان الغطيفي، وقال حدثنا الحسن بن الحكم النخَعي [2].

- **ورواه أحمد في مسنده قال:**
حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا عبد الله بن لَهِيعة بن عقبة الحضرمي أبو عبد الرحمن، عن عبد الله بن هُبَيْرة السبائي، عن عبد الرحمن بن وَعْلة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلا سأل رسول الله صلى الله

(١)أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي: الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي - بيروت، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم: ٣١٤٦.

(٢)أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، كتاب الحروف والقراءات، رقم: ٣٤٧٤.

مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م، جـ ٢٠، ص: ٣٧٥.

عليه وسلم عن سبأ: ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ فقال: "بل هو رجل، ولد عَشَرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فَمَذْحِجُ، وكِنْدَةُ، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحِمير عربا كلها. وأما الشامية فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان [1].

- **وأورد ابن كثير في تفسيره** طرقا أخرى لهذا الحديث، ثم قال: قال علماء النسب، منهم محمد بن إسحاق: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب، وكان يقال له: الرائش؛ لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه، فسمي الرائش، والعرب تسمي المال: ريشا ورياشا. وذكروا أنه بشَّر برسول الله صلى الله عليه وسلم في زمانه المتقدم، وقال في ذلك شعرًا [2]:

وذكر أن علماء النسب اختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح.

والثاني: أنه من سلالة عَابَر، وهو هود عليه الصلاة والسلام.

والثالث: أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام [3].

ومعنى قوله عليه السلام: "كان رجلا من العرب" يعني: العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه السلام، من سلالة سام بن نوح. وعلى القول الثالث: كان من سلالة الخليل عليه السلام، وليس هذا بالمشهور عندهم، والله أعلم. ولكن في صحيح البخاري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بنفر من "أسلَمَ" ينتضلون، فقال: "ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا" [4].

فأسلم قبيلة من الأنصار، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد، حين بعث الله عليهم سيل

(١)أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني: المسند، مؤسسة قرطبة - القاهرة، مسند بني هاشم، رقم: ٢٧٤٨.

(٢)أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، جـ ٦، ص: ٥٠٥.

(٣)المرجع السابق، جـ ٦، ص: ٥٠٦.

(٤)أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي: الجامع الصحيح، تحقيق: د.مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧، برقم ٣٥٠٧. من حديث سلمة رضي الله عنه.

العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم: غَسَّان لماء نزلوا عليه قيلَ: باليمن. وقيل: إنه قريب من المُشَلَّل، كما قال حسان بن ثابت:

إمَّا سَألت فَإنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ... الأزْدُ نسْبَتُنَا، والماء غَسَّانُ[1]

ومعنى قوله: "ولد له عشرة من العرب" أي: كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب.

ومعنى قوله: "فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة" أي: بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم، منهم مَنْ أقام ببلادهم، ومنهم مَنْ نزح عنها إلى غيرها، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم، فبنوا بينهما سدًا عظيما محكما حتى ارتفع الماء، وحُكِمَ على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن،...وكان هذا السد بمأرب: بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب[2].

وقال ابن كثير: كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها، وكانت التابعة منهم، وبلقيس -صاحبة سليمان- منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مَذرَ، كما يأتي تفصيله وبيانه[3].

وقال الألوسي:... وفي شرح قصيدة عبد المجيد بن عبدون لعبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي البستي أن سبا بن يشجب أول ملوك اليمن في قول، واسمه عبد شمس، وإنما سمي سبا لأنه أول من سبى السبي من ولد قحطان، وكان ملكه أربعمائة وأربعاً وثمانين سنة، ثم سمي به الحي، ومنع الصرف عنه ابن كثير وأبو عمرو، وباعتبار جعله اسماً للقبيلة ففيه العلمية والتأنيث، وقرأ قنبل بإسكان الهمزة على

(١)البيت لحسان في ديوانه ص ٢٧٩ برقم ١٧٦ - مطبوعات وزارة الثقافة بالقاهرة ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م ديوان حسان بن ثابت تحقيق د/ سيد حنفي حسنين مراجعة حسن كامل الصرفي.

(٢)تفسير ابن كثير، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ٥٠٦، ٥٠٧.

(٣)المرجع السابق، جـ ٦، ص: ٥٠٤.

نية الوقف، وعن ابن كثير قلب همزته ألفاً، ولعله سكّنها أولاً بنية الوقف كقنبل، ثم قلبها ألفاً، والهمزة إذا سكنت يطرد قلبها من جنس حركة ما قبلها، وقيل: لعله أخرجها بين بين فلم يؤده الراوي كما وجب، والمراد بسبأ هنا إما الحي أو القبيلة، وإما الرجل الذي سمعت، وعليه فالكلام على تقدير مضاف أي لقد كان في أولاد سبا، وجوز أن يراد به البلد، وقد شاع إطلاقه عليه، وحينئذ فالضمير في قوله تعالى: { فِي مَسْكَنِهِمْ } لأهلها[1].

وقال صاحب تفسير اللباب:" والجمهور على أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين قحطانية وعَدْنَانيَّة، فالقحطانية شَعْبَان سبأ وحَضْرَمَوْتَ، والعَدْنَانيَّة شعبان ربيعةُ ومُضَر، وأما قُضَاعَةُ فمختلف فيها فبعضهم نسبها إلى قَحْطَان وبعضهم إلى عدنان، وقيل: إن قحطان أول من قيل له: أنْعِمْ صباحاً، وأبَيْتَ اللَّعْنَ قال بعضهم: إن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وليس بصحيح، فإن إسماعيل نشأ بين جرهم بمكة وكانوا عرباً. والصحيح أن العرب العاربة كانوا قبل إسماعيل منهم عاد وثمود وطسم وجديس وأهم وجرهم والعماليق[2].

بناء سد مأرب

كانت مياه الأمطار والسيول تنزل بغزارة، وتصب في موضع واحد بين الجبال، فعمد أهل اليمن إلى بناء سد في ذلك الموضع للتحكم في المياه، وفي وصف هذا السد يقول صاحب معجم البلدان: "هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل إلى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة فكان الأوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة، والرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه إذا أرادوا"[3].

وقال ابن عاشور: "وكان لأهل سبأ سدّ عظيم قرب بلاد مأرب يعرف بسد مأرب، وكان أعظم السداد في بلاد اليمن التي كانت فيها سداد كثيرة متفرقة، وكانوا جعلوا هذه السداد لخزن

(١)تفسير الألوسي، مرجع سابق، جـ ١٦، ص: ٢٨٠.

(٢)عمر بن علي عادل الحنبلي: تفسير اللباب في علم الكتاب، جـ ١٣، ص: ١٣٧.

(٣)ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، دار الفكر - بيروت، جـ ٤، ص: ٣٣.

الماء الذي تأتي به السيول في وقت نزول الأمطار في الشتاء والربيع، ليسقوا منها المزارع والجنات في وقت انحباس الأمطار في الصيف والخريف، فكانوا يعمدون إلى ممرات السيول من بين الجبال، فيبنون في ممر الماء سوراً من صخور يبنونها بناء محكماً يصبون في الشقوق التي بين الصخور القَار، حتى تلتئم، فينحبس الماء الذي يسقط هنالك، حتى إذا امتلأ الخَزَّان جعلوا بجانبيه جوابي عظيمة يصب فيها الماء الذي يفيض من أعلى السد، فيقيمون من ذلك ما يستطيعون من توفير الماء المختزَن" [١].

أول من بنى السد

ذكر الطبري أن العرم هو السد الذي بنى، وأشار إلى أنه فيما ذكر مما بنته بلقيس، وروى في ذلك عن أحمد بن إبراهيم الدورقي قال ثنى وهب بن جرير قال ثنا أبي قال سمعت المغيرة بن حكيم قال: لما ملكت بلقيس، جعل قومها يقتتلون على ماء واديهم، قال: فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها، فتركت ملكها وانطلقت إلى قصر لها وتركتهم، فلما كثر الشر بينهم وندموا أتوها، فأرادوها على أن ترجع إلى ملكها، فأبت، فقالوا: لترجعن أو لنقتلنك. فقالت: إنكم لا تطيعونني وليست لكم عقول، ولا تطيعوني [٢]. قالوا: فإنا نطيعك، وإنا لم نجد فينا خيرًا بعدك. فجاءت فأمرت بواديهم، فسد بالعرم- قال أحمد قال وهب قال أبي: فسألت المغيرة بن حكيم عن العرم فقال: هو بكلام حمير المسنَّاة - فسدت ما بين الجبلين، فحبست الماء من وراء السد، وجعلت له أبوابًا بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة ضخمة، فجعلت فيها اثني عشر مخرجًا على عدة أنهارهم، فلما جاء المطر احتبس السيل من وراء السد، فأمرت بالباب الأعلى، ففتح فجرى ماؤه في البركة، وأمرت بالبعر فألقي فيها، فجعل بعض البعر يخرج أسرع من بعض، فلم تزل تضيق تلك الأنهار، وترسل البعر في الماء حتى خرج جميعًا معًا، فكانت تقسمه بينهم على ذلك، حتى كان من شأنها وشأن سليمان ما كان [٣].

ورد هذا القول ابن عاشور مشيرا إلى أن أول من بنى السد هو سبأ، ثم أتمه ابنه حمير، فقال في تفسير التحرير والتنوير: كان سدّ مأرب الذي يُحفظ فيه { سيل العرم } شَرع في بنائه سبأ

(١)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧٠.

(٢)هذه كلمة زائدة بعد التحقق من النص تحذف

(٣)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ ٢٠، ص: ٣٧٩.

أول ملوك هذه الأمة، ولم يتمه، فأتمه ابنه حمير. وأما ما يقال من أن بلقيس بنته، فذلك اشتباه إذ لعل بلقيس بنت حوله خزانات أخرى فرعية، أو رممت بناءه ترميماً أطلق عليه اسم البناء، فقد كانوا يتعهدون تلك السداد بالإصلاح والترميم كل سنة، حتى تبقى تجاه قوة السيول الساقطة فيها، وكانوا يجعلون للسد منافذ مغلقة يزيلون عنها السَّكْر إذا أرادوا إرسال الماء إلى الجنات على نوبات يرسل عندها الماء إلى الجهات المتفرقة التي تسقى منه، إذ جعلوا جناتهم حول السد مجتمعة. وكان يصب في سد مأرب سبعون وادياً... [١].

وممن ذهب من المؤرخين إلى القول ببناء سبأ بن يشجب للسد السهيلي في الروض الأنف، فقال: " وكان هذا السد من بناء سبأ بن يشجب بن يعرب، وكان ساق إليه سبعين واديا ، ومات قبل أن يستتمه، فأتمته ملوك حمير بعده . وقال المسعودي: بناه لقمان بن عاد " [٢].

وكذلك ابن خلدون في تاريخه، حيث قال: "وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب، وأن الذي بناه سبأ بن يشجب، وساق إليه سبعين واديا، وعاقه الموت عن إتمامه، فأتمه ملوك حمير من بعده" [٣].

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ... ﴾ [سبأ:١٥]

تبدأ قصة قوم سبأ بوصف ما كانوا فيه من رزق ورغد ونعيم، فيقول تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ:١٥]

يقول تعالى ذكره: لقد كان لولد سبأ في مسكنهم علامة بينة، وحجة واضحة على أنه لا رب لهم إلا الذي أنعم عليهم النعم التي كانوا فيها [٤].

وبدأت القصة بالتأكيد بلام القسم وقد، في قوله تعالى: { لَقَدْ كَانَ...}، وفي هذا يقول ابن عاشور: "التأكيد بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المخاطبين بالتعريض بهذه القصة منزلةَ من يتردد في

(١)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧١.

(٢)عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي: الروض الأنف، جـ١، ص: ٥١.

(٣)عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : تاريخ ابن خلدون، جـ١، ص: ٣٤٦. وتاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم وما عاصرهم من زوى السلطان الأكبر لوجيه عصره العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى المغربى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ طبع مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت لبنان

(٤)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ ٢٠، ص: ٣٧٥.

ذلك لعدم اتعاظهم بحال قوم من أهل بلادهم" [١].

وقد جاءت { كان } مجردة من تاء التأنيث، وذلك للفصل بينها وبين اسمها، وكونه غير حقيقي، وهذا ما يؤكده ابن عاشور بقوله: "وتجريد { كان } من تأنيث الفعل لأن اسمها غير حقيقي للتأنيث ولوقوع الفصل بالمجرور" [٢].

{ لِسَبَأ }: أي القبيلة المشهورة التي كانت تسجد للشمس، فهداهم الله تعالى على يد سليمان عليه السلام [٣].

قرأ أبو عمرو والبزي لسبأ بالفتح، وقرأ الباقون لسبأ مجرور. فمن فتح وترك الصرف فلأنه جعل سبأ اسما للقبيلة [٤]، ومن صرف وكسر جعل سبأ اسما لرجل أو لحي [٥].

وذكر الزجاج في هذا المكان أنّ مَنْ قرأ: { لِسَبَأ } بالفتح وترك الصَّرْف جعله اسماً للقبيلة، ومن صرف وكسر ونوَّن جعله اسماً للحيّ واسماً لرجل، وكلٌ جائزٌ حسن [٦].

وقال الرازي: المراد بسبأ القبيلة التي هي من أولاد سبأ، وهو: سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود. قرأ الجمهور: { لسبأ } بالجرّ والتنوين على أنه اسم حيّ، أي: الحيّ الذين هم أولاد سبأ، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: (لسبأ) ممنوع الصرف بتأويل القبيلة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، ويقوّي القراءة الأولى قوله: { في مساكنهم }، ولو كان على تأويل القبيلة لقال: في مساكنها، فمما ورد على القراءة الأولى قول الشاعر:

الواردون وتيم في ذرى سبأ... قد عضّ أعناقها جلد الجواميس [٧].

---

(١)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٦٧.

(٢)المرجع السابق، جـ ١١، ص: ٣٦٧.

(٣)نظم الدرر للبقاعي، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ٤٨٤.

(٤)وذلك للعلمية والتأنيث.

(٥)عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة: حجة القراءات تحقيق: سعيد الأفغاني جـ١،ص: ٥٨٥، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط ٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢.

(٦)عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي – بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ، جـ ٥، ص: ١٥٩.

(٧)البيت زكره الفراء في معانيه ٣٥٨/٢ ولم يعرف قائله لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ت ٢٠٧ هـ تحقيق الأستاذ / محمد على النجار طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة . وأبو حيان في البحر المحيط ٢٧٠/٧ لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي القرناطي ت ٧٥٤ إعداد مكتب البحوث والدراسات طبعة دار الفكر بيروت ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م والزمخشري في الكشاف ١٤٤/٣ للإمام محمود بن عمر الزمخشري ت ٥٣٤ هـ ضبط وتصحيح مصطفى حسين أحمد

ومما ورد على القراءة الثانية قول الشاعر:

من سبأ الحاضرين مأرب إذ... يبنون من دون مسيله العرما

وفي سبأ قراءتان بالفتح على أنه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على أنه اسم قبيلة وهو الأظهر، لأن الله جعل الآية لسبأ والفاهم هو العاقل لا المكان فلا يحتاج إلى إضمار الأهل [١].

فالمراد بسبأ هاهنا القوم الذين هم من أولاد سبأ بنِ يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان.

{فِي مَسْكَنِهِمْ}: أي في مواضع سكناهم، وهي مأرب باليمن، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: {في مَسَاكِنِهِم}. وقرأ حمزة وحفص عن عاصم: {مَسْكَنِهِم} بفتح الكاف من غير ألف. وقرأ الكسائي وخلف: {مَسْكِنِهِم} بكسر الكاف ، وهي لغة[٢]

دار الريان للتراث دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م والقرطبي في التفسير ١٨١/١٣ للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ت ٦٧١ هـ طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت .

(١)تفسير الرازي، مرجع سابق، جـ ١٢، ص: ٤٠٩.

(٢)زاد المسير، مرجع سابق، جـ٥، ص: ١٥٩.

وعن توجيه تلك القراءات يقول صاحب حجة القراءات: "فمن قرأ مساكنهم أتى باللفظ وفقا للمعنى، لأن لكل ساكن مسكنا فجمع، والمساكن جمع مسكن الذي هو اسم للموضع من سكن يسكن، وحجتهم أنها مضافة إلى جماعة، فمساكنهم بعددهم، ويقوي الجمع إجماع الجميع على قوله: " فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم "[٣].

ومن قرأ مسكَنهم بالفتح يشبه أن يكون جعل المسكن مصدرا، وحذف المضاف، والتقدير في مواضع سكناهم، فلما جعل المسكن كالسكن أفرد كما تفرد المصادر، وعلى هذا قوله " في مقعد صدق " أي في موضع قعود، ألا ترى أن لكل واحد من المتقين موضع قعود؟ ومن قرأ مسكنهم جعله اسم الموضع الذي يسكنون فيه، وإنما وحد لأنه أراد بلدهم، وقد يجوز أن يراد بذلك جمع المساكن، ثم يؤدي الواحد عن الجمع"[٤].

قال الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا: أن كل ذلك قراءات متقاربات المعنى، فبأي ذلك قرأ القارئ

---

(٣)سورة القصص آية رقم ٥٨ .

(٤)عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة: حجة القراءات، مرجع سابق، جـ١،ص: ٥٨٥، ٥٨٦.

فمصيب[١].

والمسكن اسم مكان أي في محل سكناهم، وهو كالدار يطلق على المأوى للجميع وإن كان قطراً واسعاً كما تسمى الدنيا داراً، ...واسم ذلك المكان مأرب كمنزل وهي من بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث[٢].

وهذه المساكن التي كانت لهم هي التي يقال لها الآن مأرب، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال[٣].

قال البقاعي: "{ في مسكنهم } أي التي هي في غاية الكثرة، ووحد حمزة والكسائي وحفص عن عاصم إشارة إلى أنها لشدة اتصال المنافع والمرافق كالمسكن الواحد، وكسر الكسائي الكاف إشارة إلى أنها في غاية الملاءمة لهم واللين، وفتحه الآخران إشارة إلى ما فيها من الروح والراحة، وكانت بأرض مأرب من بلاد اليمن، قال حمزة الكرماني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: على ثلاث فراسخ من صنعاء، وكانت أخصب البلاد وأطيبها وأكثرها ثماراً حتى كانت المرأة تضع على رأسها المكتل وتطوف فيما بين الأشجار فيمتلئ المكتل من غير أن تمس شيئاً بيدها، وكانت مياههم تخرج من جبل فبنوا فيه سداً وجعلوا له ثلاثة أبواب فكانوا يسرحون الماء إلى كرومهم من الباب الأعلى والأوسط والأسفل،...وقال المسعودي في مقدمات مروج الذهب قبل السيرة النبوية بيسير في الكلام على الكهان، كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها، وأعذبها وأغداها، وأكثرها جناناً، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجد على هذه الحال في العرض مثل ذلك، يسير الراكب من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها، لا تواجهه الشمس ولا يفارقها الظل، لاستتار الأرض بالأشجار واستيلائها عليها وإحاطتها بها، فكان أهلها في أطيب عيش وأرفعه وأهنأ حال وأرغده، في نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء وتدفق الماء، وقوة الشوكة واجتماع الكلمة[٤].

{ ءَايَةٌ } : المراد بالآية العلامة الواضحة الدالة على وجود الصانع سبحانه، والدالة على وحدانية الله تعالى

(١)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ٢٠، ص: ٣٧٦.

(٢)تفسير الألوسي، مرجع سابق، جـ ١٦، ص: ٢٨٠.

(٣)محمد بن على بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط البابي الحلبي– القاهرة، ١٣٥٠ هـ، جـ ٦، ص: ٩٩.

(٤)نظم الدرر للبقاعي، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ٤٨٤.

وقدرته وبديع صنعه، ووجوب شكره.

و"آية" اسم كان، أي علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقا خلقهم، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر[١].

وهذه الآية دالّة بملاحظه أحوالها السّابقة واللاّحقة على وجود الصّانع المُختار القادر على كلّ ما يشاءُ من الأمور البديعة[٢].

وفسّر البعض الآية بما حدث لسبأ لما أعرضوا عن شكر نعمة الله تعالى عليهم، فجعل جنتيهم خرابا، وأبدلهم بعد النعمة والرزق الواسع الوفير شقاء ومعاناة وضنكا في المعيشة، فالآية هنا تعود إلى أحداث قصة قوم سبأ، وما فيها من عظات وعبر.

وحول هذا المعنى يتساءل الزمخشري: "ما معنى كونهما؟ آية، قلت: لم يجعل الجنتين في أنفسهما آية، وإنما جعل قصتهما، وأنّ أهلهما أعرضوا عن شكر الله تعالى عليهما فخربهما، وأبدلهم عنهما الخمط والأثل: آية وعبرة لهم، ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم. ويجوز أن تجعلهما آية، أي: علامة دالة على الله، وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره"[٣].

فمعنى كونهما آية أن أهلها لما أعرضوا عن شكر الله سلبهم الله النعمة ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم، أو جعلهما آية أي علامة دالة على قدرة الله وإحسانه ووجوب شكره[٤].

وهذا ما يؤكده أبو حيان في تفسيره للآية بأنها علامة دالة على الله وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره، أو جعل قصتهم لأنفسهم آية، إذ أعرض أهلها عن شكر الله عليهم، فخربهم وأبدلهم عنها الخمط والأثل ثمرة لهم[٥].

(١)أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧م، جـ١٤، ص: ٢٨٣.

(٢)أبو السعود محمد بن محمد العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت، جـ ٥، ص: ٣٦٥.

(٣)محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط ٣ ، دار الريان للتراث سنة ١٤٠٧ هـ، جـ ٥، ص: ٣٦٩.

(٤)عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكتاب العربي– بيروت، ١٤٠٢ هـ ، جـ ٣، ص: ١٤٩.

(٥)تفسير البحر المحيط، مرجع سابق، جـ ٩، ص: ١٩٥.

ثم بيَّن الله تعالى هذه الآية، فقال: { جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ }، وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله، قد أحاطتا به من جهتيه، وكانت مساكنهم في الوادي، وكان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعَمَدَ ملوكهم فبنوا بينهما سدًا عظيما محكما حتى ارتفع الماء، فغرسوا الأشجار، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، وكان هذا السد بمأرب، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب.

وفي تأويلها يقول الطبري في تفسيره: وأما قوله(جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ) فإنه يعني: بستانان كانا بين جبلين، عن يمين من أتاهما وشماله.

وكان من صنفهما فيما ذُكر لنا ما حدثنا محمد بن بشار قال ثنا سليمان قال ثنا أبو هلال قال سمعت قتادة في قوله(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ) قال: كانت جنتان بين جبلين فكانت المرأة تخرج مكتلها على رأسها فتمشي بين جبلين، فيمتلئ مكتلها، وما مست بيدها، فلما طغوا بعث الله عليهم دابة، يقال لها "جُرَذ" فنقبت عليهم فغرقتهم، فما بقي لهم إلا أثل، وشيء من سدر قليل. حدثنا يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ...) إلى قوله(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) قال: ولم يكن يرى في قريتهم بعوضة قط، ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية، وإن كان الركب ليأتون وفي ثيابهم القُمَّل والدواب، فما هم إلا أن ينظروا إلى بيوتهم، فتموت الدواب، قال: وإن كان الإنسان ليدخل الجنتين، فيمسك القفة على رأسه فيخرج حين يخرج، وقد امتلأت تلك القفة من أنواع الفاكهة ولم يتناول منها شيئا بيده، قال: والسَّدُّ يسقيها [١].

ويشير ابن عاشور إلى أن في ذلك بعض المبالغة، فيقول في تفسيره: وكانت مدينتهم مأرب (بهمزة ساكنة بعد الميم) وهي بين صنعاء وحضرموت، قيل: كان السائر في طرائقها لو وضع على رأسه مكتلاً لوجده قد ملئ ثماراً مما يسقط من الأشجار التي يسير تحتها. ولعل في هذا القول شيئاً من المبالغة إلا أنها تؤذن

(١)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ ٢٠، ص: ٣٧٦، ٣٧٧. كما أخرج ابن أبي حاتم خبر عبد الرحمن بن زيد، وأخرج عبد بن حميد خبر قتادة. انظر: عبد الرحمن بن جلال الدين السيوطي: الدر المنثور، دار الفكر - بيروت ، ١٩٩٣، جـ٨ ص: ٢٣٠.

بوفرة. وكان ذلك بسبب تدبير ألهمهم الله إياه في اختزان المياه النازلة في مواسم المطر بما بنوا من السد العظيم في مأرب[١].

وكلمة جنتين لا تعني العدد بقدر ما هي إشارة إلى كثرة تلك الجنات وترابطها وتلاصقها مع بعضها، حتى صارت كأنها جنة عن اليمين وأخرى عن اليسار.

قال القشيري: ولم يرد جنتين اثنتين، بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة، أي كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار، تستتر الناس بظلالها [٢].

وهذا ما يؤكده الزمخشري بقوله: فإن قلتَ: كيف عظَّم الله جنتي أهل سبأ وجعلهما آية ورب قرية من قريات العراق يحتف بها من الجنان ما شئت؟ قلتُ: لم يرد بستانين اثنين فحسب وإنما أراد جماعتين من البساتين: جماعة عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها، وكل واحد من الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة، كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها، أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله، كما قال: جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب[٣].

و{ جَنَّتَانِ } بدل من { ءايَةٌ } أو خبر مبتدأ محذوف تقديره الآية جنتان[٤].

وقال ابن عاشور: { جنتان } تشبيه بليغ، أي في مساكنهم شبيه جنتين في أنه مغترس أشجاراً ذات ثمر متصل بعضها ببعض مثل ما يعرفَ من حال الجنات، وتثنية جنتين باعتبار أن ما على يمين السَّائر كجنة، وما على يسَاره كجنة. وقيل: كان لكل رجل منهم في مَسكنه، أي داره جنتان جنة عن يمين المسكن وجنة عن شماله، فكانوا يتفيئون ظلالهما في الصباح والمساء ويجتنون ثمارهما من نخيل وأعناب وغيرها، فيكون معنى التركيب على التوزيع، أي: لكل مسكن جنتان، كقولهم: ركِب القومُ دوابهم، وهذا مناسب لقوله: { في مساكنهم } دون أن يقول في بلادهم أو ديارهم، ويجوز أن يكون المراد أن مدينتهم وهي مأرب كانت محفوفة على يمينها وشمالها بغابة من الجنات يصطافون فيها ويستثمرونها مثل غوطة دمشق، وهذا يناسب قوله بعدُ {وبدلناهم بجنتيهم جنتين} [سبأ: ١٦] لأن ظاهره أن المبدل به جنتان اثنتان، إلا أن تجعله على

(١)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٦٨.

(٢)تفسير القرطبي، مرجع سابق، جـ ١٤، ص: ٢٨٤.

(٣)الكشاف، مرجع سابق، جـ ٥، ص: ٣٦٩.

(٤)تفسير النسفي، مرجع سابق، جـ٣،ص: ١٤٩.

التوزيع من مقابلة المتعدد بالمتعدد.والمعنى: أنهم كانوا أهل جنّات مغروسة أشجاراً مثمرة وأعناباً [١].

{ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ }: وكانت تلك الجنات عن يمين الوادي وشماله. وقيل: عن يمين من أتاهم وشماله.

قال البقاعي: { عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ } أي بساتين متصلة وحدائق مشتبكة، ورياض محتبكة، حتى كان الكل من كل جانب جنة واحدة لشدة اتصال بعضه ببعض عن يمين كل سالك وشماله في أي مكان سلك من بلادهم ليس فيها موضع معطل [٢].

وقال البيضاوي: جماعةٌ عن يمينِ بلدهم وجماعةٌ عن شماله، كلُّ واحدة من تِيْنكَ الجماعتينِ في تقاربِهما وتضامِّنها كأنها جنة واحدة، أو بستانا كُل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله [٣].

وأياً ما كان فالمراد بالجنتين على ما روى عن قتادة جماعتان من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله، وإطلاق الجنة على كل جماعة لأنها بتقارب أفرادها وتضامنها كأنها جنة واحدة كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها، وقيل: أريد بستانا كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله كما قال سبحانه: { جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أعناب }[الكهف: ٣٢] [٤].

وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل، ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب. وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين ، ولذا جاء عقب ذكر الجنتين قوله تعالى: { كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ } .

وجملة { كلوا من رزق ربكم } مقول قول إما من دلالة لسان الحال، وإما أُبلغوه على ألسنة أنبياء بعثوا منهم. قال القرطبي:" كلوا من رزق ربكم " أي قيل لهم كلوا، ولم يكن ثم أمر، ولكنهم تمكنوا من تلك النعم. وقيل: أي قالت الرسل لهم قد أباح الله تعالى لهم ذلك، أي أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة [٥].

وقال البيضاوي: { كُلُواْ مِن رِّزْقِ

(١)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٦٧، ٣٦٨.

(٢)نظم الدرر للبقاعي، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ٤٨٤.

(٣)ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، جـ ٥، ص: ٢٧.

(٤)تفسير الألوسي، مرجع سابق، جـ ١٦، ص: ٢٨١.

(٥)تفسير القرطبي، مرجع سابق، جـ ١٤، ص: ٢٨٤.

رَبِّكُمْ واشكروا لَهُ } حكاية لما قال لهم نبيهم، أو لسان الحال أو دلالة بأنهم كانوا أحقاء بأن يقال لهم ذلك [١].

{ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ } يعني: من ثمار الجنتين وزروعهما وأثمارهما، يقول الرازي: وفيه إشارة إلى تكميل النعم عليهم حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض [٢].

{ ربكم } أي المحسن إليكم الذي أخرج لكم منها كل ما تشتهون [٣].

ثم جاء الأمر بشكر الله تعالى على تلك النعمة ، فقال تعالى: (وَاشْكُرُوا لَهُ) : أي اشكروا الله على ما أنعم به عليكم من رزقه.

وفي الأمر بالشكر بيان أيضاً لكمال النعمة، فإن الشكر لا يطلب إلا على النعمة المعتبرة [٤].

قال البغوي: { وَاشْكُرُوا لَهُ } أي: على ما رزقكم من النعمة، والمعنى: اعملوا بطاعته [٥].

وشكر الله تعالى يكون بطاعته واجتناب معاصيه، كما قال الشوكاني: { واشكروا لَهُ } على ما رزقكم من هذه النعم، واعملوا بطاعته، واجتنبوا معاصيه [٦].

وتحدث الله تعالى عن بلدة سبأ، فوصفها بأنها { بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ }، أي: كريمة التربة، حسنة الهواء، رغدة النعم، سليمة من الهوامّ والمضار، ليس فيها شيء مؤذ. وقيل: المراد بطيبها صحة هوائها وعذوبة مائها ووفور نزهتها وأنه ليس فيها حر يؤذي في الصيف ولا برد يؤذي في الشتاء.

قال البغوي: { بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ } أي: أرض سبأ بلدة طيبة ليست بسبخة، قال ابن زيد: لم يكن يرى في بلدهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية، وكان الرجل يمر ببلدهم وفي ثيابه القمل فيموت القمل كله من طيب الهواء، فذلك قوله تعالى: { بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ }

(١)تفسير البيضاوي، مرجع سابق، جـ ٥، ص: ٢٧.

(٢)تفسير الرازي، مرجع سابق، جـ ١٢، ص: ٤٠٩.

(٣)نظم الدرر للبقاعي، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ٤٨٥.

(٤)تفسير الرازي، مرجع سابق، جـ ١٢، ص: ٤٠٩.

(٥)أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي: معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وآخران، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧م، جـ ٦، ص: ٣٩٣.

(٦)فتح القدير، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ١٠٠.

أي: طيبة الهواء [١].

وقال ابن عاشور: { بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ } أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور فرطات من يشكره، والجملة استئناف للتصريح بموجب الشكر، ومعنى طيبة زكية مستلذة. والطيِّبة: الحسنة في جنسها الملائمة لمزاولها ومستثمرها... وتنكير { بلدة } للتعظيم [٢].

وجملة: { بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ } مستأنفة لبيان موجب الشكر. والمعنى: هذه بلدة طيبة لكثرة أشجارها، وطيب ثمارها. وقيل: معنى كونها طيبة: أنها غير سبخة، وقيل: ليس فيها هوامّ. وقال مجاهد: هي: صنعاء [٣].

{ وَرَبٌّ غَفُورٌ } أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد وإن أنتم أطعتموه وشكرتموه فيما رزقكم.

وعن قتادة قوله(بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) وربكم غفور لذنوبكم، قوم أعطاهم الله نعمة، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته [٤].

وقال مقاتل: وربكم إن شكرتم فيما رزقكم ربّ غفور للذنوب [٥].

وتنكير {رب} للتعظيم... ولتكون الجملة على وزن التي قبلها طلباً للتخفيف ولتحصل المزاوجة بين الفقرتين، فتسيرا مسير المثل [٦].

و{بلدة} مبتدأ و{طيبة} نعت لبلدة ، وخبره محذوف تقديره : لكم، وعُدل عن إضافة {بلدة} إلى ضميرهم لتكون الجملة خفيفة على اللسان فتكون بمنزلة المثل .

و{رب}: مبتدأ محذوف الخبر على وزان {بلدة طيبة} ، والتقدير : ورب لكم ، أي ربكم غفور [٧].

وقرأ ورش ورويس : بنصب الأربعة . قال أحمد بن يحيى : اسكنوا بلدة طيبة واعبدوا رباً غفوراً . وقال الزمخشري : منصوب على المدح [٨].

---

(١)تفسير البغوي، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ٣٩٣.

(٢)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٦٨.

(٣)فتح القدير، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ١٠٠.

(٤)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ ٢٠، ص: ٣٧٧.

(٥)فتح القدير، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ١٠٠.

(٦)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٦٩.

(٧)المرجع السابق، جـ١١، ص: ٣٦٨ ، ٣٦٩.

(٨)تفسير البحر المحيط، مرجع سابق، جـ٩، ص: ١٩٦ ، وفتح القدير، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ١٠٠.

قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ... ﴾[سبأ:١٦-١٧]

لما ذكر تعالى ما كان من جانبه من الإحسان إلى سبأ، ذكر ما كان من جانبهم في مقابلته، فقال تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾[سبأ:١٦-١٧].

فقد أعرضت سبأ عن الحقّ، وعن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى الشرك، وكذّبوا أنبياءهم .

قال الطبري في تأويل الآية: أعرضت سبأ عن طاعة ربها، وصدت عن اتباع ما دعتها إليه رسلها من أنه خالقها، كما حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال ثني محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه اليماني قال: لقد بعث الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبيًّا فكذبوهم [١].

وكانت ثلاث عشرة قرية، فبعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيّاً، فكذّبوا الرُّسلَ، ولم يُقِرُّوا بنعم الله [٢].

قال أبو حيان: { فأعرضوا }: أي عما جاء به إليهم أنبياؤهم، وكانوا ثلاثة عشر نبياً، دعوهم إلى الله تعالى، وذكروهم نعمه، فكذبوهم وقالوا: ما نعرف لله نعمة، فبين كيفية الانتقام منهم [٣].

وقال الألوسي: { فَأَعْرَضُواْ } أي عن الشكر كما يقتضيه المقام، ويدخل فيه الإعراض عن الإيمان لأنه أعظم الكفر والكفران [٤].

وقال القرطبي: قوله تعالى: (فأعرضوا) يعني عن أمره واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين. قال السدي ووهب: بعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم. قال القشيري: وكان لهم رئيس يلقب بالحمار، وكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وقيل: كان له ولد فمات، فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر، ولهذا يقال: أكفر من حمار. وقال الجوهري: وقولهم " أكفر من حمار " هو رجل من عاد مات له أولاد فكفر كفرا عظيما، فلا يمر بأرضه أحد إلا دعاه إلى الكفر،

---

(١)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ٢٠، ص: ٣٧٨.

(٢)زاد المسير،مرجع سابق، جـ ٥، ص: ١٥٩.

(٣)تفسير البحر المحيط، مرجع سابق، جـ ٩، ص: ١٩٦.

(٤)تفسير الألوسي، مرجع سابق، جـ ١٦، ص: ٢٨٣.

فإن أجابه وإلا قتله [١] .

{ فأرسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ }: الإرسال: الإطلاق، وهو ضد الحبس، وتعديته بحرف (على) مؤذنة بأنه إرسال نقمة فإن سيل العرم كان محبوساً بالسد في مأرب فكانوا يرسلون منه بمقدار ما يَسقون جناتهم، فلما كفروا بالله بعد الدعوة للتوحيد قدر الله لهم عقاباً بأن قدَّر أسباب انهدام السد، فاندفع ما فيه من الماء، فكان لهم غرقاً وإتلافاً للأنعام والأشجار، ثم أعقبه جفاف باختلال نظام تساقط الأمطار وانعدام الماء وقت الحاجة إليه، وهذا جزاء على إعراضهم وشركهم [٢].

وقد أورد الطبري ثلاثة أراء في تفسير العرم فقيل إنه اسم للسد، وقيل إنه صفة للسيل، وقيل إنه اسم واد باليمن، وحين أعرضت سبأ عن تصديق الرسل وصدت عن طاعة الله ثقب الله عليهم السد الذي كان يحبس عنهم السيول، وتفصيل ذلك كما ذكر الطبري فيما يلي:

أولا: العرم المسناة التي تحبس الماء، واحدها عرمة، وإياه عنى الأعشى بقوله:

فَفِي ذَاكَ لِلْمُؤْتَسِي أُسْوَةٌ...

وَمَأْرِبُ عَفَّى عليه العَرِمْ

رِجامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حِمْيَرٌ... إذا جَاءَ ماؤُهُمُ لَمْ يَرِمْ [٣][٤].

حدثنا أحمد بن عمر البصرى قال ثنا أبو صالح بن زريق قال أخبرنا شريك عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة في قوله(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) قال: المسناة بلحن اليمن [٥].

ثانيا: قيل: إن العرم اسم واد كان لهؤلاء القوم، وأورد الطبري في هذا المعنى الروايات التالية:

حدثني محمد بن سعد، قال: ثنى أبى، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله

(١)تفسير القرطبي،مرجع سابق،جـ ١٤،ص: ٢٨٥.

(٢)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧٠.

(٣)البيتان للأعشى بني قيس بن ثعلبة من قصيدة يمدح بها قيس بن معد يكرب، طبعة المكتب الشرقى للنشر والتوزيع بيروت لبنان د/ محمد محمد حسين.

والرجام: الصخور العظيمة، جمع رجمة. توضع على القبر ونحوه. وفسر قوله "لم يرم": أي حبسه. والضمير راجع إلى الماء. والعرم: واحدها عرمة، وهي بناء مثل المشان، يحبس بها الماء فيشرف به على الماء في وسط الأرض، ويترك فيه سبل للسفينة. فتلك العرمات. واحدها عرمة. ا هـ. وفي (اللسان: سني. المسناة: العرم. والعرم بفتح الراء وكسرها، وكذلك واحدها، وهو العرمة: والعرم سد يعترض به الوادي. والجمع عرم. وقيل العرم: وجمع لا واحد له. وقال أبو حنيفة: العزم الأحباس تبنى في أوساط الأودية. ا. هـ. وهي ما نسميه اليوم: خزانات أو قناطر.

(٤)تفسير الطبري، مرجع سابق،جـ ٢٠، ص: ٣٧٨.

(٥)المرجع السابق، جـ ٢٠، ص: ٣٧٩.

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) قال: واد كان باليمن، كان يسيل إلى مكة، وكانوا يسقون وينتهي سيلهم إليه.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) ذُكر لنا أن سيل العرم واد كانت تجتمع إليه مسايل من أودية شتى، فعمدوا فسدوا ما بين الجبلين بالقير والحجارة وجعلوا عليه أبوابا، وكانوا يأخذون من مائه ما احتاجوا إليه، ويسدون عنهم ما لم يعنوا به من مائه شيئا.

حدثت عن الحسين قال سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول في قوله (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) واد يدعى العرم، وكان إذا مطر سالت أودية اليمن إلى العرم، واجتمع إليه الماء فعمدت سبأ إلى العرم فسدوا ما بين الجبلين، فحجزوه بالصخر والقار، فانسد زمانا من الدهر، لا يرجون الماء، يقول: لا يخافون.

ثالثا: قال آخرون: العرم صفة للمسناة التي كانت لهم، وليس باسم لها.

حدثني علي قال ثنا أبو صالح قال ثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله(سَيْلَ الْعَرِمِ) يقول: الشديد، وكان السبب الذي سبب الله لإرسال ذلك السيل عليهم فيما ذُكر لى جُرذًا ابتعثه الله على سدهم، فثقب فيه ثقبًا [١].

وفي معنى العرم يقول ابن عاشور. {والعرم} يجوز أن يكون وصفاً من العرامة وهي الشدة والكثرة فتكون إضافة «السيل» إلى {العرم} من إضافة الموصوف إلى الصفة. ويجوز أن يكون {العرم} اسماً للسيل الذي كان ينصبّ في السد فتكون الإضافة من إضافة المسمى إلى الاسم، أي السيْل العرم.

وكانت للسيول والأودية في بلاد العرب أسماء كقولهم: سيل مهزور ومذينيب الذي كانت تسقى به حدائق المدينة، ويَدل على هذا المعنى قول الأعشى

... ومأرب عفى علَيها العَرم.

وقيل: { العرم } اسم جمع عرَمَة بوزن شَجرة، وقيل لا واحد له من لفظه وهو ما بني ليمسك الماء لغة يمنية وحبشية. وهيَ المسناة بلغة أهل الحجاز، والمسناة بوزن مفعلة التي هي اسم الآلة مشتق من سنيت بمعنى سَقيت، ومنه سميت الساقية سانية وهي الدلو المستقى به والإضافة على هذين أصيلة.

والمعنى: أرسلنا السيل الذي كان

(١)تفسير القرطبي المرجع السابق، جـ ٢٠، ص: ٣٨٠.

مخزوناً في السدّ[١].

وأضاف القرطبي في معنى العرم: عن الزجاج: العرم اسم الجرذ الذي نقب السكر عليهم، وهو الذي يقال له الخلد - وقاله قتادة أيضا - فنسب السيل إليه لأنه بسببه وقد قال ابن الأعرابي أيضا: العرم من أسماء الفأر[٢].

وقال مجاهد وابن أبي نجيح: العرم ماء أحمر أرسله الله تعالى في السد فشقه وهدمه. وعن ابن عباس أيضا أن العرم المطر الشديد. وقال عمرو بن شرحبيل: العرم المسناة، وقاله الجوهري، قال: ولا واحد لها من لفظها، ويقال واحدها عرمة. وقال محمد بن يزيد: العرم كل شيء حاجز بين شيئين، وهو الذي يسمى السكر، وهو جمع عرمة. النحاس: وما يجتمع من مطر بين جبلين وفي وجهه مسناة فهو العرم، والمسناة هي التي يسميها أهل مصر الجسر، فكانوا يفتحونها إذا شاءوا فإذا رويت جنتاهم سدوها. قال الهروي: المسناة الضفيرة تبني للسيل ترده، سميت مسناة لان فيها مفاتح الماء[٣].

فقد ذكر المفسرون في معنى العرم أربعة أقوال:

أحدها: أن العَرِم: الشديد، أو السَّيل الذي لا يُطاق.

والثاني: أنه اسم الوادي.

والثالث: أنه المُسنَّاة. وقال أبو عبيدة: العَرِم: جمع عَرِمَة، وهي: السِّكْر والمُسنَّاة.

والرابع: أن العَرِم: الجُرَذ الذي نقب عليهم السِّكْر[٤].

وجمع ابن عادل تلك الآراء مضيفا رأيا خامسا للعرم بمعنى البناء، فقال في تفسير اللباب: **العَرِمُ فيه أوجه:**

أحدها: أنه من باب إضافة الموصوف لصفته في الأصل إذ الأصل: السَّيْلُ العَرِمُ، والعَرِمُ الشديد وأصله من العَرَامَة، وهي الشَّراسَةُ والصعوبة وعَرِمَ فُلاَنٌ فَهُوَ عارِمٌ وَعرِم وعُرَام الجَيْشِ منه.

الثاني: أنه من حذف الموصوف وإقامة صفته مُقامه تقديره فأرسلنا عليهم سَيْلَ المَطَرِ العَرِمِ أي الشديد الكثير.

الثالث: أن العَرِم اسم للبناء الذي يجعل سداً وأنشد قول الشاعر:

مِنْ سَبَأ الحَاضِرين مَأْرِبَ إذْ... يَبْنُونَ مِنْ سَيْلِهِ العَرِمَا[٥] أي البناء

---

(١)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧٠.

(٢)تفسير القرطبي، مرجع سابق، جـ ١٤، ص: ٢٨٥.

(٣)المرجع السابق، جـ ١٤، ص: ٢٨٦.

(٤)زاد المسير، مرجع سابق، جـ ٥، ص: ١٦٠.

(٥)من سبأ الحاضرين مأرب إذ ... للنابغة الجعدي في ديوانه ص ١٣٤ وينسب أيضاً لأمية

القوي...

الرابع: أن العَرِم اسم للوادي الذي كان فيه الماء نفسه[١].

وقال ابن الأعرابي: العرم السيل الذي لا يطاق وقيل: كان ماءً أحمر أرسله الله عليهم من حيث شاء.

الخامس: أنه اسم للجرذ وهو الفأر. وقيل: هو الخُلْدُ وإنما أضيف إليه؛ لأنه تسبب عنه إذ يروى في التفسير أنه قرض السدّ إلى أن انفتح عليهم ففرقوا به. وعلى هذه الأقوال الثلاثة تكون الإضافة إضافةً صحيحة معرفة نحو: غُلاَمُ زَيْد، أي سيل البناء أو سيل الوادي الفُلاَنِيّ أو سيل الجُرَذ[٢].

ثم ذكر الطبري أن أهل العلم اختلفوا في صفة إرسال هذا السيل عليهم، وذلك على رأيين: إما أن يكون السيل قد هدم السد ففاض الماء وأغرق أرضهم وبلدهم، وإما أن يكون الماء قد تحول وسال بعيدا عن أرضهم ، فجفت الأرض وأصابهم القحط، ورجح الطبري الرأي الأول فقال: ثم اختلف أهل العلم في صفة ما حدث عن ذلك الثقب مما كان فيه خراب جنتيهم.

فقال بعضهم: كان صفة ذلك ان السيل لما وجد عملا فى السد عمل فيه، ثم فاض الماء على جنانهم؛ فغرقها وخرب أرضهم وديارهم...

حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة قال ثني محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه اليماني قال: كان لهم، يعني لسبأ سد، قد كانوا بنوه بنيانًا أبدًا، وهو الذي كان يرد عنهم السيل إذا جاء أن يغشى أموالهم، وكان فيما يزعمون في علمهم من كهانتهم، أنه إنما يخرب عليهم سدهم ذلك فأرة، فلم يتركوا فرجة بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة، فلما جاء زمانه وما أراد الله بهم من التغريق، أقبلت فيما يذكرون فأرة حمراء إلى هرة من تلك الهرر فساورتها، حتى استأخرت عنها أي الهرة، فدخلت في الفرجة التي كانت عندها، فغلغلت في السد فحفرت فيه حتى وهنته للسيل وهم لا يدرون، فلما

بن أبي الصلد وهو في ديوانه ص ٤٩٠ . والكتاب لسيبويه ٢٨/٢ وتفسير القرطبي ١٨١/١٣ ولسان العرب مادة (سبأ) والكشاف للزمخشري ٣ / ١٤٤ . ديوان النابغة الجعدي طبعة المكتب الإسلامي للطباعة والنشر دمشق ١٩٦٤م / ١٣٨٤هـ الطبعة الأولى . الكتاب لسيبويه هو أبي بشر عمر بن عثمان بن قنبر ت ١٨٠ هـ تحقيق عبد السلام محمد هارون طبعة مكتبة الخانجي القاهرة ـ ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م . لسان العرب لابن منظور للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ت ٧١١ هـ طبعة بيروت . ٢٠٠٠م الطبعة الأولى .

(١)تفسير اللباب، مرجع سابق، جـ ١٣، ص: ١٣٨.

(٢)المرجع السابق، جـ ١٣، ص: ١٣٩.

جاء السيل وجد خللا فدخل فيه حتى قلع السد وفاض على الأموال فاحتملها فلم يبق منها إلا ما ذكره الله، فلما تفرقوا نزلوا على كهانة عمرو بن عامر.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة قال: لما ترك القوم أمر الله بعث الله عليهم جُرذًا يسمى الخُلْد، فنقبه من أسفله حتى غرق به جناتهم، وخرب به أرضهم عقوبة بأعمالهم.

حدثنا عن الحسين قال سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عبيد بن سليمان قال سمعت الضحاك يقول: لما طغوا وبغوا، يعني سبأ، بعث الله عليهم جرذا فخرق عليهم السد فأغرقهم الله.

حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: بعث الله عليه جرذا وسلطه على الذي كان يحبس الماء الذي يسقيها، فأخرب في أفواه تلك الحجارة وكل شيء منها من رصاص وغيره، حتى تركها حجارة، ثم بعث الله سيل العرم، فاقتلع ذلك السد وما كان يحبس، واقتلع تلك الجنتين، فذهب بهما، وقرأ(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ) قال: ذهب بتلك القرى والجنتين.

الثاني: كانت صفة ذلك أن الماء الذي كانوا يعمرون به جناتهم سال إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفعون به، فبذلك خربت جناتهم...

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قال: بعث الله عليهم، يعني على العرم، دابة من الأرض فنقبت فيه ثقبًا، فسال ذلك الماء إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفعون به، وأبدلهم الله مكان جنتيهم جنتين ذواتي أُكُل خَمْط، وذلك حين عصوا، وبطروا المعيشة.

والقول الأول أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر أنه أرسل عليهم سيل العرم، ولا يكون إرسال ذلك عليهم إلا بإسالته عليهم، أو على جناتهم وأرضهم لا بصرفه عنهم[1].

ويقول ابن الجوزي: وفي صفة إرسال هذا السيل عليهم قولان.

أحدهما: أن الله تعالى بَعَثَ على سكْرهم دابَّةً من الأرض فنقبت فيه نقبا، فسال ذلك الماء إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفعون به، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال قتادة والضحاك في آخرين: بعث اللّهُ عليهم جُرَذاً يسمَّى الخُلْد – والخُلْد: الفأر الأعمى – فنقبه

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ ٢٠، ص: ٣٨٠ – ٣٨٢.

من أسفله، فأغرق اللّهُ به جنَّاتهم، وخرَّب به أرضهم.

والثاني: أنه أرسل عليهم ماءً أحمر، أرسله في السدِّ فنسفه وهدمه وحفر الوادي، ولم يكن الماء أحمر من السد، وإنما كان سيلاً أُرسل عليهم، قاله مجاهد[1].

وجاء في معجم البلدان: "والعرم المسناة التي كانت قد أحكمت لتكون حاجزا بين ضياعهم وحدائقهم وبين السيل، ففجرته فأرة، ليكون أظهر في الأعجوبة، كما أفار الله الطوفان من جوف التنور، ليكون ذلك أثبت في العبرة وأعجب في الأمة، ولذلك قال خالد بن صفوان التميمي لرجل من أهل اليمن كان قد فخر عليه بين يدي السفاح: ليس فيهم يا أمير المؤمنين إلا دابغ جلد أو ناسج برد أو سائس قرد أو راكب عرد، غرقتهم فأرة، وملكتهم امرأة، ودل عليهم هدهد!" [2]

ويرد ابن عاشور تلك الأخبار التي تجعل انهيار السد بسبب حفر الجرذان واصفا إياها بأنها من الخرافات قائلا: ولا يعرف وقت انهدام هذا السد ولا أسباب ذلك، والظاهر أن سبب انهدامه اشتغال ملوكهم بحروب داخلية بينهم ألهتهم عن تفقد ترميمه حتى تخرب، أو يكون قد خربه بعض من حاربهم من أعدائهم، وأما ما يذكر في القصص من أن السد خربته الجرذان فذلك من الخرافات[3].

ويشير صاحب تفسير الوسيط إلى أن سبب انهيار السد هو الإهمال وترك العناية به، فيقول: ويرى بعضهم أن المراد بالعرم: السدود التي كانت مبنية لحجز الماء من خلفها، ويأخذون منها لزروعهم على قدر حاجتهم، فلما أصيبوا بالترف والجحود تركوا العناية بإصلاح هذه السدود، فتصدعت، واجتاحت المياه أراضيهم فأفسدتها، واكتسحت مساكنهم، فتفرقوا عنها، ومزقوا شر ممزق[4].

ويحكي كتاب السير أن أول من خرج من اليمن هو عمرو بن عامر، وذلك لما رأى جرذا يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء، فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك، فاعتزم على النقلة من اليمن، فكاد قومه، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه، فيلطمه، ففعل ابنه ما أمره به، فقال: لا

(١)زاد المسير، مرجع سابق، جـ ٥، ص: ١٦٠.

(٢)معجم البلدان، مرجع سبق، جـ٤، ص: ٣٥.

(٣)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧١.

(٤)محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط، ص: ٣٤٦٩. دار المعارف ١٤١٢هـ ١٩٩٢ م.

أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي، وعرض أمواله، فقال أشراف من أشراف اليمن: اغتنموا غضبة عمرو، فاشتروا منه أمواله . وانتقل في ولده وولد ولده، وقالت الأزد: لا نتخلف عن عمرو بن عامر، فباعوا أموالهم، وخرجوا معه.[١] .

وقد ذكر ابن كثير ما كان من خبر عمر ولطم ابنه إياه ثم قال: هذا أثر غريب عجيب[٢] .

قوله تعالى: { وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ }

أذهب الله تلك القرى والجنات، وأبدلهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار والأعناب، أشجارًا من الأراك والأثل والقليل من سدر.

{ وبدلناهم بِجَنَّتَيْهِمْ } المذكورتين { جَنَّتَيْنِ } وتسمية البدل جنتين للمشاكلة وازدواج الكلام كقوله { وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } [الشورى: ٤٠][٣] .

ومعنى { ذواتي أكل } صاحبتي { أُكل }، فذوات جمع ذَات التي بمعنى صَاحبة، وهي مؤنث ذو بمعنى صاحب[٤].

قال ابن الجوزي: وفي المراد بالخَمْط ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الأراك، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجمهور؛ فعلى هذا، أُكُلُه: ثمره؛ ويسمَّى ثمر الأراك: البَرِير.

والثاني: أنه كل شجرة ذات شوك، قاله أبو عبيدة.

والثالث: أنه كل نبت قد أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله، قاله المبرِّد والزجّاج. فعلى هذا القول، الخَمْط: اسم للمأكول، فيَحسُن على هذا قراءة من نوَّن الأُكُل؛ وعلى ما قبله، هو اسم شجرة، والأُكُل ثمرها، فيحسُن قراءة من أضاف[٥].

واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الأمصار بتنوين "أُكُلٍ" غير أبي عمرو، فإنه يضيفها إلى الخمط بمعنى ذواتي ثمر خمط. وأما الذين لم يضيفوا ذلك إلى الخمط وينونون الأكل، فإنهم جعلوا الخمط هو الأكل، فردوه عليه في إعرابه. وبضم الألف والكاف من الأكل قرأت قراء الأمصار، غير

(١)السهيلي: الروض الأنف، مرجع سابق، جـ١، ص: ٥٤.

(٢)تفسير ابن كثير، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ٥١٠.

(٣)تفسير النسفي، مرجع سابق، جـ ٣، ص: ١٥٠.

(٤)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧١.

(٥)زاد المسير، مرجع سابق، جـ ٥، ص: ١٦٠.

نافع، فإنه كان يخفف منها.

والصواب من القراءة في ذلك عندي قراءة من قرأه(ذَوَاتَيْ أُكُل) بضم الألف والكاف لإجماع الحجة من القراء عليه، وبتنوين أكل لاستفاضة القراءة بذلك في قراء الأمصار، من غير أن أرى خطأ قراءة من قرأ ذلك بإضافته إلى الخمط، وذلك في إضافته وترك إضافته، نظير قول العرب في بستان فلان أعنابُ كرمٍ وأعنابٌ كرم، فتضيف أحيانًا الأعناب إلى الكرم لأنها منه، وتنون أحيانًا، ثم تترجم بالكرم عنها، إذ كانت الأعناب ثمر الكرم[١] .

قال المبرد: التنوين في أكل أحسن من الإضافة على البدل، ويجوز أن يكون على النعت لأنه وإن كان فكأنه شيء مكروه الطعم، فجرى مجرى النعت لأن بعض العرب يسمي ما كان مكروه الطعم من حموضة أو مرارة خمطًا. قال: وأحسب أبا عمرو ذهب في الإضافة إلى هذا كأنه أراد أكل حموضة أو مرارة وما أشبه ذلك[٢] .

وخفف الكاف في أكل نافع وابن كثير، وثقل الباقون، إلا ما روى عباس عن أبي عمرو أكل خمط خفيفا[٣] .

فيكون القراء هنا على ثلاث مراتب:

الأولى : لأبي عمرو أُكُلِ خمطٍ بضم كاف أكل مضافاً « لخمط ».

الثانية : لنافع وابن كثير بتسكين كافه وتنوينه.

الثالثة: للباقين ضم كافه وتنوينه[٤].

وأما الأثل: فإنه يقال له: الطَّرفاء، وقيل: شجر شبيه بالطرفاء غير أنه أعظم منها، وقيل: إنها السَّمُر[٥] .

قال الفراء: هو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولا، ومنه اتخذ منبر النبي صلى الله عليه وسلم، وللاثل أصول غليظة يتخذ منه الابواب، وورقه كورق الطرفاء، الواحدة أثلة والجمع أثلات. وقال الحسن: الأثل الخشب. قتادة: هو ضرب من الخشب يشبه الطرفاء رأيته

(١)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ٢٠، ص: ٣٨٣.

(٢)عبد الرحمن بن زنجلة: حجة القراءات، مرجع سابق، جـ١،ص: ٥٨٧.

(٣)أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي: السبعة في القراءات، تحقيق شوقي ضيف ج١ ص ٥٢٨ دار المعارف – القاهرة، ط ٢، ١٤٠٠.

(٤)تفسير اللباب لابن عادل، مرجع سابق، جـ١٣، ص: ١٣٩.

(٥)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ ٢٠، ص: ٣٨٣.

بفيد[١] . وقيل هو السمر. وقال أبو عبيدة: هو شجر النضار... قال قتادة: بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة، وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر[٢] .

وقال ابن الجوزي: فأمَّا الأثْل، ففيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الطَّرْفاء، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه السَّمُر، حكاه ابن جرير.

والثالث: أنه شجر يشبه الطَّرْفاء إلاَّ أنه أعظم منه[٣] .

{ وشيءٍ من سِدْرٍ قليلٍ }:

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: { وشيءٍ من سِدْرٍ قليلٍ } فيه تقديم، وتقديره: وشيء قليل من سِدْر، وهو شجر النبق. والمعنى أنه كان الخَمْط والأثل في جنَّتيهم أكثر من السِّدْر[٤] .

والسدر شجر معروف، وهو شجر النبق ينتفع بورقه لغسل الرأس ويغرس في البساتين، ولم يكن هذا من ذلك، بل كان سدرًا بريا لا ينتفع به ولا يصلح ورقة لشيء[٥] .

قال الألوسي: قال الأزهري: السدر سدران سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمرة عفصة لا تؤكل وهو الذي يسمي الضال ، وسدر ينبت على الماء، وثمره النبق، وورقه غسول

يشبه شجر العناب انتهى. واختلف في المراد هنا فقيل الثاني، ووصف بقليل لفظاً ومعنى أو معنى فقط، وذلك إذا كان نعتاً لشيء المبين به لأن ثمره مما يطيب أكله، فجعل قليلاً فيما بدلوا به لأنه لو كثر كان نعمة لا نقمة، وإنما أوتوه تذكيراً للنعم الزائلة لتكون حسرة عليهم، وقيل المراد به الأول حتماً لأنه

(١)بفيد: بالفتح ثم السكون ودال مهملة ــ قال ابن الأعرابي : الفيد الموت والفيد الشعيرات فوق حقلة الفرس . وقيل للمؤرج : لم أكتنيت بأبي فيد وقال فيد منزل بطريق مكة والفيد ورد ورد الزعفران ويجوز أن يكون من قولهم / أستفاد الرجل فائدة وفيد بليدة فى نصف طريق مكة من الكوفة عامرة إلى الآن يودع الحاج فيها أزوارهم، وما يثقل وقال السكوتى فيد نصف طريق الحاد من الكوفة إلى مكة
معجم البلدان / للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى ٤/٧٨٢.

(٢)تفسير القرطبي، مرجع سابق، جـ ١٤، ص: ٢٨٧ ، ٢٨٨.

(٣)زاد المسير، مرجع سابق، جـ ٥، ص: ١٦٠.

(٤)المرجع السابق، جـ ٥، ص: ١٦٠.

(٥)تفسير البغوي، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ٣٩٣ ، ٣٩٤.

الأنسب بالمقام، ولم يذكر نكتة الوصف بالقليل عليه... وأياً كان ففي التنصيص عليه ما يشير إلى أن له شأناً، فلما ذكر سبحانه ما آل إليه حال أولئك المعرضين وما بدلوا بجنتيهم أتى جل وعلا بما يتضمن الإيذان بحقارة ما عوضوا به وهو مما له شأن عند العرب أعنى السدر وقلته، والإيذان بالقلة ظاهر وأما الإيذان بالحقارة فمن ذكر شيء والعدول عن أن يقال وسدر قليل مع أنه الأخص الأوفق بما قبله ففيه إشارة إلى غاية انعكاس الحال حيث أوما الكلام إلى أنهم لم يؤتوا بعد إذهاب جنتهم شيئاً مما لجنسه شأن عند العرب إلا السدر وما أوتوه من هذا الجنس حقير قليل[١] .

ويحتمل أن يرجع قوله " قليل " إلى جملة ما ذكر من الخمط والأثل والسدر[٢] .

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ)

قرأ (وهل نجازي) بالنون وكسر الزاي (إلاّ الكفور) نصبا، حمزة والكسائي وحفص[٣] .

وحجتهم في ذلك أنه أتى عقيب لفظ الجمع في قوله { ذلك جزيناهم بما كفروا }، فكان الأولى بما أتى في سياقه أن يكون بلفظه وبعده، { وجعلنا بينهم }، فهذا يؤيد معنى الجمع ليأتلف الكلام على نظام واحد. وقرأ الباقون وهل يجازى بضم الياء وفتح الزاي الكفور رفع على ما لم يسم فاعله، وحجتهم في ذلك أن ما أتى في القرآن من المجازاة أكثره على ما لم يسم فاعله، من ذلك: { اليوم تجزى كل نفس }، { فلا يجزى إلا مثلها }، { ثم يجزاه الجزاء الأوفى }، فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى[٤] .

وقال ابن خالويه: قوله تعالى: { وهل يجازى إلا الكفور } يقرأ بالياء وفتح الزاي وبالنون وكسر الزاي، فالحجة لمن قرأه بالياء والفتح أنه جعله

(١)تفسير الألوسي، مرجع سابق، جـ ١٦، ص: ٢٨٤ ، ٢٨٥.

(٢)تفسير القرطبي، مرجع سابق، جـ ١٤، ص: ٢٨٨.

(٣)أبو طاهر إسماعيل بن خلف بن سعيد النحوي المقرىء : العنوان في القراءات السبع، ص: ٢٦

(٤)عبد الرحمن زنجلة: حجة القراءات، مرجع سابق، جـ١،ص: ٥٨٧، ٥٨٨ . (اليوم تجزى كل نفس)(سورة غافر/١٧)(فلا يجزى إلا بمثلها) (سورة الأنعام / ١٦٠) (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) (سورة النجم / ٤١)

فعل ما لم يسم فاعله فرفع لذلك الكفور، والحجة لمن قرأه بالنون أنه جعل الفعل لله عز وجل وعداه إلى الكفور فنصبه به[١].

و{ ذلك } إشارة إلى مصدر قوله تعالى: { جزيناهم } أو إلى ما ذُكر من التَّبديلِ. وما فيه من معنى البُعد للإيذانِ ببُعد رُتبتِه في الفظاعة. ومحلُّه على الأوَّلِ النَّصبُ على أنَّه مصدرٌ مؤكدٌ للفعل المذكور وعلى الثَّاني النَّصبُ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ له، أي ذلك الجزاءَ الفظيعَ جزيناهم لا جزاءً آخرَ، أو ذلك التَّبديلَ جزيناهم لا غيرَه[٢].

ويجوز أن يكون اسم الإشارة في محل رفع بالابتداء وتكون الإشارة إلى ما تقدم من قوله: {فأرسلنا عليهم سيل العرم} إلى قوله: {من سدر قليل} [سبأ: ١٦] ويكون جملة {جزيناهم} خبرَ المبتدأ والرابط ضمير محذوف تقديره: جزيناهموه[٣].

والتقديم للتعظيم والتهويل وقيل للتخصيص أي ذلك التبديل جزيناهم لا غيره أو ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاء آخر[٤].

قوله(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا) يقول تعالى ذكره: هذا الذي فعلنا بهؤلاء القوم من سبأ من إرسالنا عليهم سيل العرم، حتى هلكت أموالهم، وخربت جناتهم، جزاءً منَّا على كفرهم بنا، وتكذيبهم رسلنا[٥].

ومعنى الكلام: كذلك كافأناهم على كفرهم بالله وهل يجازى إلا الكفور لنعمة الله. فإن قال قائل: أو ما يجزى الله أهل الإيمان به على أعمالهم الصالحة، فيخص أهل الكفر بالجزاء؟ فيقال: وهل يجازى إلا الكفور؟ قيل: إن المجازاة في

(١)الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله: الحجة في القراءات السبع تحقيق عبد العال سالم مكرم ج١، ص ٢٩٤ – بيروت ط ٤، ١٤٠١، دار الشروق –، . و"هل" يجيء في الكلام على أربعة أوجه: يكون جحدا كقوله { وهل يجازى إلا الكفور }، ودليل ذلك مجيء التحقيق بعدها. وتكون استفهاما كقوله : { هل يسمعونكم إذ تدعون }. ويكون أمرا كقوله: { فهل أنتم منتهون }. ويكون بمعنى قد كقوله تعالى: { هل أتى على الإنسان حين من الدهر }.

(٢)تفسير أبي السعود، مرجع سابق، جـ ٥، ص: ٣٦٧.

(٣)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧٣.

(٤)تفسير الألوسي،مرجع سابق،جـ ١٦،ص:٢٨٦.

(٥)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ ٢٠، ص: ٣٨٤.

هذا الموضع المكافأة، والله تعالى ذكره وعد أهل الإيمان به التفضل عليهم[١].

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله { وهل نجازي إلا الكفور } قال: تلك المناقشة.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن طاوس { وهل نجازي إلا الكفور } قال: هو المناقشة في الحساب، ومن نوقش الحساب عذب، وهو الكافر لا يغفر له.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي حيوة وكان من أصحاب علي قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والمنغص في اللذة قيل: وما المنغص؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصه إياها[٢].

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن الجحود والبطر، يؤديان إلى الخراب والدمار، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم. ولذا جاء التعقيب بعد هذه الآية بقوله – تعالى –: { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نجازي إِلاَّ الكفور }. أي: ذلك الذي فعلناه بهم من تبديل جنتيهم، بجنتين ذواتى أكل خمط.. هو الجزاء العادل لهم بسبب جحودهم وترفهم وفسوقهم عن أمرنا[٣].

فالله تعالى لا يعاقب ولا يجازى هذا الجزاء الرادع الشديد إلا لمن جحد نعمته، وكفر بآياته، وآثر الغى على الرشد، والعصيان على الطاعة.

فان قيل: قد يُجازى المؤمنُ والكافر، فما معنى هذا التخصيص؟ فعنه جوابان.

أحدهما: أن المؤمن يُجزى ولا يُجازى، فيقال في أفصح اللغة: جزى اللّهُ المؤمن، ولا يقال: جازاه، لأن «جازاه» بمعنى كافأه، فالكافر يُجازى بسيِّئته مثلها، مكافأة له، والمؤمن يُزاد في الثواب ويُتفضَّل عليه، هذا قول الفراء.

والثاني: أن الكافر ليست له حسنة تكفِّر ذنوبه، فهو يُجازى بجميع الذُّنوب، والمؤمن قد أحبطت حسناتُه سيِّئاته، هذا قول الزجاج[٤].

وقال الزمخشري: والمعنى: أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلاّ الكافر، وهو

(١)المرجع السابق، جـ ٢٠، ص: ٣٨٤.

(٢)الدر المنثور، مرجع سابق، جـ ٨، ص: ٢٣٤.

(٣)تفسير الوسيط، مرجع سابق، ص: ٣٤٦٩.

(٤)زاد المسير،مرجع سابق، جـ ٥، ص: ١٦٠.

العقاب العاجل، وقيل: المؤمن تكفر سيئاته بحسناته، والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما عمله من السوء. ووجه آخر: وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة، يستعمل تارة في معنى المعاقبة، وأخرى في معنى الإثابة، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله: ﴿ جزيناهم بِمَا كَفَرُواْ ﴾ بمعنى: عاقبناهم بكفرهم. قيل: ﴿وهل يجازى إلا الكفور ﴾ بمعنى: وهل يعاقب؟ وهو الوجه الصحيح. وليس لقائل أن يقول: لم قيل: وهل يجازى إلاّ الكفور، على اختصاص الكفور بالجزاء، والجزاء عام للكافر والمؤمن؟ لأنه لم يرد الجزاء العام، وإنما أراد الخاص وهو العقاب، بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه. ألا ترى أنك لو قلت: جزيناهم بما كفروا، وهل يجازى إلاّ الكافر والمؤمن: لم يصحّ ولم يسد كلاماً، فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل، وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[1].

فهذا الذي صار أمر تَيْنك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسّدْر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل[2].

وقال الألوسي: وقيل بسبب كفرهم بالرسل الثلاثة عشر الذين بعثوا إليهم. واستشكل هذا مع القول بأن السيل العرم كان زمن الفترة بأن الجمهور قالوا. لا نبي بين نبينا وعيسى عليهما الصلاة والسلام، ومن الناس من قال: بينهما صلى الله عليه وسلم أربعة أنبياء ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب وهو خالد العبسي وهو قد بعث لقومه وبنو إسرائيل لم يبعثوا للعرب. وأجيب بأن ما كان زمن الفترة هو السيل العرم لا غير والرسل الثلاثة عشر هم جملة من كان في قومهم من سبأ بن يشجب إلى أن أهلكهم الله تعالى أجمعين فتأمل ولا تغفل[3].

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا... ﴾[سبأ : ١٨]

(١)الكشاف، مرجع سابق، جـ ٥، ص: ٣٧٠.

(٢)تفسير ابن كثير،مرجع سابق،جـ ٦، ص: ٥٠٨.

(٣)تفسير الألوسي،مرجع سابق،جـ ١٦،ص:٢٨٦.

يحكي الله سبحانه وتعالى ما أنعم به على قوم سبأ من نعمة أخرى خارج بلادهم، وهي نعمة الأمن في الطريق، حيث يسيرون بين القرى المباركة مسافات مقدرة بلا تعب، ولا كلل، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾[سبأ : ١٨].

قال النيسابوري: "حين ذكر حال مسكنهم وجنتيهم وحكى تبديل الجنتين بما لا نفع فيه أراد أن يذكر حال خارج بلدهم وما يؤول إليه أمره فقال: {وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها}[1] ".

فقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القرى التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ حكاية لما أُوتوا من النِّعم البادية في مسايرهم ومتاجرهم وما فَعلُوا بها من الكُفران وما حاق بهم بسبب ذلك تكملةً لقصتهم وبياناً لعاقبتهم، وإنما لم يذكر الكلّ معاً لما في التّثنية والتّكرير من زيادة تنبيه وتذكير، وهو عطف على كان لسبأ لا على ما بعده من الجمل النّاطقة بأفعالهم أو بأجزيتها، أي وجعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم من فُنون النِّعم بينهم أي بين بلادهم وبين القُرى الشّامية التي باركنا فيها للعالمين[2].

فإن قيل: هذا من النعم والله تعالى أراد بيان تبديل نعمهم بقوله:{ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيهِمْ جَنَّتَيْنِ } فكيف عاد مرة أخرى إلى بيان النعمة بعد النعمة؟

فالجواب: أنه ذكر حال نفس بلدهم وبين تبديل ذلك بالخمط والأثل ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمرانها بكَثْرة القُرى ثم ذكر تبديله ذلك بالمَفاوز والبَرَاري والبَوَادي بقوله: { بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا }، وقد فعل ذلك[3].

وقال ابن كثير: يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حَمل زاد ولا ماء، بل حيث

(١)الواحدي النيسابوري: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، دار الكتب العلمية- بيروت، جـ ٦، ص: ٢٨١.

(٢)تفسير أبي السعود، مرجع سابق، جـ ٥، ص: ٣٦٧.

(٣)تفسير اللباب،مرجع سابق،جـ ١٣، ص: ١٤١.

نزل وجد ماء وثمرا، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم؛ ولهذا قال تعالى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}[١].

وقال ابن عطية: هذه الآية وما بعدها وصف حالهم قبل مجيء السيل، وهي أن الله تعالى مع ما كان منحهم من الجنتين والنعمة الخاصة بهم، كان قد أصلح لهم البلاد المتصلة بهم وعمرها وجعلهم أربابها، وقدر فيها السير بأن قرب القرى بعضها من بعض حتى كان المسافر من مأرب إلى الشام يبيت في قرية ويقيل في قرية أخرى، فلا يحتاج إلى حمل زاد[٢].

فالآية الكريمة تحكى نعمة عظمى أخرى أنعم الله – تعالى – بها على أهل سبأ، وهى نعمة تيسير سبل السفر لهم إلى القرى المباركة، وتهيئة الأمان والاطمئنان لهم خلال سفرهم، وهى نعمة عظمى لا يدرك ضخامتها إلا من مارس الأسفار من مكان إلى آخر[٣].

ويرى صاحب الظلال أن سبأ كانوا إلى هذا الوقت ما يزالون في قراهم وبيوتهم. ضيق الله عليهم في الرزق، وبدلهم من الرفاهية الخشونة والشدة؛ لكنه لم يمزقهم ولم يفرقهم، وكان العمران ما يزال متصلاً بينهم وبين القرى المباركة: مكة وبيت المقدس، فقد كانت اليمن ما تزال عامرة فى شمال بلاد سبأ ومتصلة بالقرى المباركة، والطريق بينهما عامر مطروق مسلوك مأمون[٤].

{ وجعلنا }: وصف تعالى حالهم قبل مجيء السيل، وهو أنه مع ما كان منهم من الجنتين والنعمة الخاصة بهم، كان قد أصلح لهم البلاد المتصلة بهم وعمرها وجعلهم أربابها، وقدّر السير بأن قرب القرى بعضها من بعض[٥].

وأورد الطبري روايات في معنى القرى التي باركنا فيها ، فقيل هي الشام، كما ورد عن مجاهد وقتادة، وقيل: عُني بالقرى التي بورك فيها بيت المقدس، كما ورد عن ابن عباس[٦].

قال القرطبي: والقرى التي بورك فيها: الشام والأردن وفلسطين[٧].

---

(١)تفسير ابن كثير،مرجع سابق،جـ ٦، ص: ٥٠٨.

(٢)المحرر الوجيز، مرجع سابق، جـ ٥، ص: ٣٤٦.

(٣)تفسير الوسيط، مرجع سابق، ص: ٣٤٧٠.

(٤)في ظلال القرآن،مرجع سابق،جـ ٦،ص: ١١٧.

(٥)تفسير البحر المحيط، مرجع سابق، جـ ٩، ص: ١٩٨.

(٦)تفسير الطبري،مرجع سابق،جـ ٢٠،ص: ٣٨٦.

(٧)تفسير القرطبي،مرجع سابق،جـ ١٤،ص: ٢٨٩.

وقال ابن عاشور: والمراد بالقرى التي بوركت قرى بلاد الشام فكانوا إذا خرجوا من مأرب إلى البلاد الشامية قوافل للتجارة وبيع الطعام سلكوا طريق تهامة ثم الحجاز ثم مشارف الشام ثم بلاد الشام، فكانوا كلما ساروا مرحلة وجدوا قرية أو بلداً أو داراً للاستراحة واستراحوا وتزودوا. فكانوا من أجل ذلك لا يحملون معهم أزواداً إذا خرجوا من مأرب[١].

وقوله(قُرًى ظَاهِرَةً) يعني: قرى متصلة ، وهي قرًى عربيَّةٌ.

روى الطبري قول الحسن في قوله(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً) قال: قرًى متواصلة، قال: كان أحدهم يغدو فيقيل في قرية ويروح فيأوي إلى قرية أخرى. قال: وكانت المرأة تضع زنبيلها على رأسها، ثم تمتهن بمغزلها، فلا تأتى بيتها حتى يمتلئ من كل الثمار.

وعن قتادة (قُرًى ظَاهِرَةً) أي: متواصلة. وعن ابن عباس قوله(قُرًى ظَاهِرَةً) يعني: قرًى عربية بين المدينة والشام. وعن الضحاك يقول في قوله(قُرًى ظَاهِرَةً) يعني: قرًى عربية وهي بين المدينة والشأم[٢] .

قال ابن عطية: واختلف في معنى { ظاهرة } فقالت فرقة: معناه مستعلية مرتفعة في الآكام والظراب[٣] وهي أشرف القرى. وقالت فرقة: معناه يظهر بعضها من بعض فهي أبداً في قبضة المسافر لا يخلو من رؤية شيء منها فهي ظاهرة بهذا الوجه. قال الفقيه الإمام القاضي: والذي يظهر إليّ أن معنى { ظاهرة } خارجة عن المدن، فهي عبارة عن القرى الصغار التي هي في ظواهر المدن، فإنما فصل بهذه الصفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي المدن، وظواهر المدن ما خرج عنها في الفيافي والفحوص، ومنه قولهم نزلنا بظاهر فلانة، أي خارجاً عنها وقوله {

---

(١)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧٤.

(٢)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ ٢٠، ص: ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

(٣)الظراب: الظراب ما نتأ من الحجارة وحدد طرفه ــ والجبل المنبسط ــ والجمع ظراب وفى الحديث (الاستسقاء) (اللهم على الأكام والظراب وبطون الأودية) المعجم الوسيط ــ إبراهيم مصطفى ، وأحمد حسن الزيات ، وعبد السلام هارون ٥٨١/٢ طبعة مطبعة مصر ١٣٨١هـ ــ ١٩٦١م

ظاهرة } نظير تسمية الناس إياها البادية والضاحية، ومنه قول الشاعر:

فلو شهدتني من قريش عصابة... قريش البطاح لا قريش الظواهر[١]

يعني الخارجين عن بطحاء مكة، وفي حديث الاستسقاء وجاء أهل الضواحي يشكون الغرق[٢].

ومعنى { ظاهرة } على ما روى عن قتادة متواصلة يقرب بعضها من بعض بحيث يظهر لمن في بعضها ما في مقابلته من الأخرى، وهذا يقتضي القرب الشديد، ... وقال المبرد ظاهرة مرتفعة أي على الآكام والظراب وهي أشرف القرى؛ وقيل ظاهرة معروفة يقال هذا أمر ظاهر أي معروف وتعرف القرية لحسنها ورعاية أهلها المارين عليها، وقيل: ظاهرة موضوعة على الطرق ليسهل سير السابلة فيها[٣].

وقال صاحب النكت والعيون: { قُرىً ظَاهِرَةً } فيه أربعة أوجه:

أحدها: متصلة ينظر بعضهم إلى بعض، قاله الحسن، وأبو مالك.

الثاني: أنها العامرة.

الثالث: الكثيرة الماء.

الرابع: أن القرى الظاهرة هي القرى القريبة، قاله سعيد بن جبير، والضحاك.

وفيها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها السروات، قاله مجاهد.

الثاني: أنها قرى لصنعاء، قاله ابن منبه.

الثالث: أنها قرى ما بين مأرب والشام، قاله سعيد بن جبير[٤].

وقيل: كانت قراهم أربعة آلاف

(١)البيت في البحر المحيط ٥٣٧/٨ ولم يعرف قائله.

(٢)المحرر الوجيز، مرجع سابق، جـ ٥، ص: ٣٤٦. والحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ـ كتاب الاستسقاء باب من أكتفى بصلاة الجمعة في الاستسقاء ٣٦/٢ طبعة الشعب ولفظه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هلكت المواشي وتقطعت السبل فدعا فطرنا من الجمعة إلى الجمعة ثم جاء فقال: تهدمت البيوت وتقطعت السبل وهلكت المواشي فادعوا الله أن يمسكها فقام صلى الله عليه وسلم فقال: اللهم على الآكام والظراب والأودية ومنابت الشجر فأنجابت على المدينة إنجياب الثوب.

(٣)تفسير الألوسي، مرجع سابق، جـ ١٦، ص: ٢٨٨.

(٤)أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي: النكت والعيون، دار الصفوة – القاهرة، ١٤١٣ هـ، جـ ٣، ص: ٤٠٦.

وسبعمائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام[١].

وهذه القرى الظاهرة يحتمل أنها تكونت من عمل الناس القاطنين حَفافي الطريق السابلة بين مأرب وجِلّق[٢] قصدَ استجلاب الانتفاع بنزول القوافل بينهم وابتياع الأزواد منهم وإيصال ما تحتاجه تلك القرى من السلع والثمار وهذه طبيعة العمران. ويحتمل أن سبأ أقاموا مباني يأوون إليها عند كل مرحلة من مراحل أسفارهم واستنبطوا فيها الآبار والمصانع وأوكلوا بها من يحفظها ويكون لائذاً بهم عند نزولهم. فيكون ذلك من جملة ما وطّد لهم ملوكهم من أسباب الحضارة والأمن على القوافل، وقد تكون إقامة هاته المنازل مجلبة لمن يقطنون حولها ممن يرغب في المعاملة مع القافلة عند مرورها. وعلى الاحتمالين فإسناد جعل تلك القرى إلى الله تعالى لأنه الملهم الناس والملوك أو لأنه الذي خلق لهم تربة طيبة تتوفر محاصيلها على حاجة السكان فتسمح لهم بتطلب ترويجها في بلاد أخرى[٣].

وقوله (وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ) فقد جعل الله تعالى ذكره بين قراهم والقرى التي بارك فيها سيرًا مقدرًا من منزل إلى منزل ومن قرية إلى قرية.

يقول القرطبي: جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سيرا مقدرا من منزل إلى منزل، ومن قرية إلى قرية، أي جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في قرية أخرى. وإنما يبالغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء وخوف الطريق، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة ونزل أينما أراد[٤].

وقال الألوسي: { وَقَدَّرْنَا فِيهَا السير } أي جعلنا نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين من السير قيل من سار من قرية صباحاً وصل إلى أخرى وقت الظهيرة والقيلولة ومن سار بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب فلا يحتاج لحمل زاد ولا مبيت في أرض خالية ولا

(١)تفسير البغوي، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ٣٩٥.

(٢)جلق بالتشديد وكسر الجيم واللام موضع بالشام أنظر مختار الصحاح ص ١٠٦ ط الأميرية بالقاهرة ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٩م.

(٣)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧٤.

(٤)تفسير القرطبي، مرجع سابق، جـ ١٤، ص: ٢٨٩، ٢٩٠.

دعوا ربهم أن يبعّد بين أسفارهم بطرا وأشرا، يقول تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ : ١٩].

واختلف القراء في قوله تعالى: " فقالوا ربنا بعد بين أسفارنا "، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو بعّد مشددة العين بغير ألف ، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي باعد خفيفا بألف[1].

وفي أوجه القراءة وتأويل الآية قال الطبري: اختلف القراء في قراءة قوله:(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)، فقرأته عامة قراء المدينة والكوفة(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) على وجه الدعاء والمسألة بالألف، وقرأ ذلك بعض أهل مكة والبصرة(بَعَّدْ) بتشديد العين على الدعاء أيضًا. وذكر عن المتقدمين أنه كان يقرؤه: (رَبَنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) على وجه الخبر من الله أن الله فعل بهم ذلك، وحكي عن آخر أنه قرأه: (رَبَّنَا بَعَّدَ) على وجه الخبر أيضًا غير أن الرب منادى.

والصواب من القراءة في ذلك عندنا(رَبَّنَا بَاعِدْ) و(بَعِّدْ) لأنهما القراءتان المعروفتان في قراءة الأمصار، وما عداهما فغير معروف فيهم، على أن التأويل من أهل التأويل أيضًا يحقق قراءة من قرأه على وجه الدعاء والمسألة، وذلك أيضًا مما يزيد القراءة الأخرى بعدًا من الصواب.

فإذا كان هو الصواب من القراءة، فتأويل الكلام: فقالوا: يا ربنا باعدْ بين أسفارنا؛ فاجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز، لنركب فيها الرواحل، ونتزود معنا فيها الأزواد، وهذا من الدلالة على بطر القوم نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، وجهلهم بمقدار العافية، ولقد عجل لهم ربهم الإجابة، كما عجل للقائلين: (إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) أعطاهم ما رغبوا إليه فيه وطلبوا من المسألة[2].

عن أبي مالك في هذه الآية(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) قال: كانت لهم قرى متصلة باليمن، كان بعضها ينظر

(١)أبو بكر أحمد بن مجاهد التميمي: السبعة في القراءات، مرجع سابق، جـ١، ص: ٥٢٩ .

(٢)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ٢٠، ص: ٣٨٨، ٣٨٩. والآية من سورة الأنفال رقم ٣٢.

إلى بعض، فبطروا ذلك، وقالوا: ربنا باعد بين أسفارنا، قال: فأرسل الله عليهم سيل العرم، وجعل طعامهم أثلا وخمطًا وشيئًا من سدر قليل.

وعن ابن عباس قوله(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) قال: فإنهم بطروا عيشهم، وقالوا: لو كان جَنَى جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيه، فمُزِّقوا بين الشام وسبأ، وبدلوا بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط، وأثل وشيء من سدر قليل.

وعن قتادة(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) بطر القوم نعمة الله وغمطوا كرامة الله، قال الله(وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ).

قال ابن زيد، في قوله(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) حتى نبيت في الفلوات والصحاري(فَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)[1].

قال الماوردي: وفيها ثلاثة تأويلات:

أحدها: أنهم قالوا ذلك لأنهم ملّوا النعم كما ملّ بنو إسرائيل المن والسلوى، قاله الحسن.

الثاني: أنهم قالوا لو كانت ثمارنا أبعد مما هي كانت أشهى في النفوس وأحلى، قاله ابن عيسى، وهو قريب من الأول لأنه بطر. فصار نوعاً من الملل.

الثالث: معناه زد في عمارتنا حتى تبعد فيه أسفارنا، حكاه النقاش. وهذا القول منهم طلباً للزيادة والكثرة[2] .

الفاء من قوله: { فقالوا ربنا } لتعقيب قولهم هذا إثر إتمام النعمة عليهم باقتراب المدن وتيسير الأسفار، والتعقيبُ في كلّ شيء بحسبه، فلما تمت النعمة بَطروها فحَلت بهم أسباب سلبها عنهم.

ومن أكبر أسباب زوال النعمة كفرانها. قال الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري «من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها»[3] .

قال الألوسي: لما طالت بهم مدة النعمة بطروا وملوا وآثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير كما فعل بنو

(١)المرجع السابق، جـ ٢٠، ص: ٣٨٩ ، ٣٩٠.

(٢)النكت والعيون،مرجع سابق،جـ ٣، ص: ٤٠٦.

(٣)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧٥.

ويجمل الماوردي تلك الآراء بقوله: { وَظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ } فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: ظلموها بقولهم باعد بين أسفارنا، قاله بن زيد.

الثاني: بتكذيب الرسل وهم ثلاثة عشر نبياً. قال الكلبي: إنهم قالوا لرسلهم حين ابتلوا وهم مكذبون: وقد كنا نأبى عليكم وأرضنا عامرة خير أرض فكيف اليوم وأرضنا خراب شر أرض.

الثالث: أنهم ظلموا أنفسهم بالتغيير والتبديل بعد أن كانوا مسلمين، قاله الحسن[١].

وكانت نتيجة بطر النعمة وكفران المنعم أن سلبها الله تعالى منهم، ومزقهم في البلاد، فلم يبق لهم أثر، وصاروا أحاديث يتحاكى بها الناس، وعبرة يضرب بهم الأمثال.

قال الطبري: (فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) يقول: صيرناهم أحاديث للناس يضربون بهم المثل في السبِّ، فيقال: تفرق القوم أيادي سَبَا، وأيدي سبا إذا تفرقوا وتقطعوا[٢].

وقال الرازي: وقوله: { فجعلناهم أَحَادِيثَ } أي فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلاً، يقال: تفرقوا أيدي سبا[٣].

وقال أبو حيان: { فجعلناهم أحاديث }: أي عظاة وعبراً يتحدث بهم ويتمثل. وقيل: لم يبق منهم إلا الحديث، ولو بقي منهم طائفة لم يكونوا أحاديث[٤].

وقال الألوسي: { فجعلناهم أَحَادِيثَ } جمع أحدوثه وهي ما يتحدث به على سبيل التلهي والاستغراب لا جمع حديث على خلاف القياس، وجعلهم نفس الأحاديث إما على المبالغة أو تقدير المضاف أي جعلناهم بحديث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم[٥].

وقال الماوردي: { فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ } أي يتحدث الناس بما كانوا فيه من نعيم وما صاروا إليه من هلاك، حتى ضرب المثل فقيل: تفرقوا أيدي سبأ، ومنه قول الشاعر:

باد قوم عصف الدهر بهم... فرقوا

---

(١)النكت والعيون، مرجع سابق، جـ ٣، ص: ٤٠٦.

(٢)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ ٢٠، ص: ٣٩٠.

(٣)تفسير الرازي، مرجع سابق، جـ ١٢، ص: ٤١١.

(٤)تفسير البحر المحيط، مرجع سابق، جـ ٩، ص: ٢٠٠.

(٥)تفسير الألوسي، مرجع سابق، جـ ١٦، ص: ٢٨٩.

عن صرفه أيدي سبأ[١].

وقال ابن عاشور: ومعنى { فجعلناهم أحاديث } جعلنا أولئك الذين كانوا في الجنات وفي بحبوحة العيش أحاديث، أي لم يبق منهم أحد فصار وجودهم في الأخبار والقصص، وأبادهم الله حين تفرقوا بعد سيل العرم، فكان ذلك مسرعاً فيهم بالفناء بالتغرب في الأرض والفاقة وتسلط العوادي عليهم في الطرقات كما ستعلمه. وفعل الجعل يقتضي تغييراً ولما علق بذواتهم انقلبت من ذوات مشاهدة إلى كونها أخباراً مسموعة. والمعنى: أنهم هلكوا وتحدث الناس بهم. وهذا نظير قولهم: دخلوا في خبر كان، وإلا فإن الأحاديث لا يخلو منها أحد ولا جماعة. وقد يكون في المدح كقوله:

... هاذي قبورهُم وتلكَ قصورهم
وحديثُهم مستودَع الأوْراق...

أو أريد: فجعلناهم أحاديث اعتبار وموعظة، أي فأصبناهم بأمر غريب من شأنه أن يتحدث به الناس فيكون { أحاديث } موصوفاً بصفة مقدرة دل عليها السياق مثل قوله تعالى: { يأخذ كل سفينة غصباً } [الكهف: ٧٩]، أي كل سفينة صالحة بقرينة قوله: { فأردت أن أعيبها } [الكهف: ٧٩][٢].

(ومزقناهم كل ممزق) يحكي الله عن قوم سبأ أنهم بعدما كفروا بالله تعالى وبطروا نعمته حلت عليهم العقوبة، فانهار سدهم، وتخربت بلادهم، وتفرقوا في البلاد، وتمزقوا.

قال الطبري: وقوله (وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) يقول: وقطعناهم في البلاد كل مقطع[٣].

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي رضي الله عنه في قوله { ومزقناهم كل ممزق } قال: أما غسان فلحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان. فمزقهم الله كل ممزق[٤].

---

(١)النكت والعيون، مرجع سابق، جـ ٣، ص: ٤٠٦. البيت ذكره الموردى فى تفسير ٤٤٦/٤ ولم يعرف قائله والنكت والعيون (تفسير الموردى للإمام أبى الحسن بن محمد بن حبيب الموردى) ت ٤٥٠هـ تحقيق السيد عبد المقصود طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٢ هـ ١٩٩٢م الطبعة الأولى .

(٢)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧٦.

(٣)تفسير الطبري، مرجع سابق، جـ ٢٠، ص: ٣٩٠.

(٤)الدر المنثور، مرجع سابق، جـ ٨، ص: ٢٣٥.

بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض بالإيجاد والإعدام للذوات والصفات بالخسف والمسخ، فإنه لا فرق بين خارق وخارق، وعلى أن بطرهم لتلك النعمة حتى ملوها ودعوا بإزالتها دليل على أن الإنسان ما دام حياً فهو في نعمة يجب عليه شكرها كائنة ما كانت وإن كان يراها بلية، لأنه لما طبع عليه من القلق كثيراً ما يرى النعم نقماً، واللذة ألماً، ولذلك ختم الآية بالصبر بصيغة المبالغة[١].

وجمع «الآيات» لأن في تلك القصة عدة آيات وعِبَر: فحالةُ مساكنهم آية على قدرة الله ورحمته وإنعامه، وفيه آية على أنه الواحد بالتصرف، وفي إرسال سير العرم عَليهم آية على انفراده تعالى بالتصرف، وعلى أنه المنتقم وعلى أنه واحد، فلذلك عاقبهم على الشرك، وفى انعكاس حالهم من الرفاهة إلى الشظف آية على تقلب الأحوال وتغير العالم وآية على صفات الأفعال لله تعالى من خَلْق ورَزق وإحياء وإماتة، وفي ذلك آية من عدم الاطمئنان لدوام حال فى الخير والشر. وفيما كان من عمران إقليمهم واتساع قراهم إلى بلاد الشام آية على مبلغ العمران وعظم السلطان من آيات التصرفات، وآية على أن الأمن أساس العمران. وفي تمنيهم زوال ذلك آية على ما قد تبلغه العقول من الانحطاط المفضي إلى اختلال أمور الأمة وذهاب عظمتها، وفيما صاروا إليه من النزوح عن الأوطان والتشتت في الأرض آية على ما يُلجئ الاضطرارُ إليه الناس من ارتكاب الأخطار والمكاره كما يقول المثل: الحُمى أضرعتنى إليك[٢].

وقال ابن كثير: إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام -لعبرةً ودَلالةً لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى، قالا أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن العَيْزَار بن حُرَيث عن عمر بن سعد، عن أبيه -هو سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه-قال: قال

(١)نظم الدرر للبقاعي، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ٤٨٩.

(٢)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧٧.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن، إن أصابه خير حَمدَ رَبَّه وشكر، وإن أصابته مصيبة حَمِد ربه وصَبَر[١]، يؤجر المؤمن في كل شيء، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته".

قال عبد: حدثنا يونس، عن شيبان، عن قتادة { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } قال: كان مطرّف يقول: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر[٢].

وفي معنى الصبار يورد الماوردي رأيين، فيقول: { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } يحتمل وجهين:

أحدهما: صبار على البلوى شكور على النعماء.

الثاني: صبور على أمر الله شكور في طاعة الله[٣].

وقال القرطبي: (لكُلِّ صَبَّارٍ) الصبار الذي يصبر عن المعاصي، وهو تكثير صابر يمدح بهذا الاسم[٤].

وقال الألوسي: {لكُلِّ صَبَّارٍ } أي شأنه الصبر على الشهوات ودواعي الهوى وعلى مشاق الطاعات، وقيل: شأنه الصبر على النعم بأن لا يبطر ولا يطغى وليس بذاك { شَكُورٍ } شأنه الشكر على النعم، وتخصيص هؤلاء بذلك لأنهم المنتفعون بها[٥].

ولما كان الصبر حبس النفس عن أغراضها الفاسدة وأهويتها الم... وكانت مخالفة الهوى أشد ما يكون على النفس وأشق، وكانت النعم تبطر وتطغي، وتفسد وتلهي، فكان عطف النفوس إلى الشكر بعد جماحها بطغيان النعم صعباً[٦].

وقال ابن عاشور: وجملة { إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور } تذييل فلذلك قطعت، وافتتاحها بأداة التوكيد للاهتمام بالخبر. ..ويظهر أن هذا التذييل تنهية للقصة وأن ما بعد هذه الجملة متعلق بالغرض الأول المتعلق بأقوال

(١)الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الزهد باب المؤمن أمره كله خير ٤/٢٢٩٥ح /٢٩٩٩/ بسنده عن صهيب رضى الله عنه (والحكم على الحديث: صحيح لوجوده فى صحيح مسلم).

(٢)تفسير ابن كثير، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ٥١٢.

(٣)النكت والعيون،مرجع سابق،جـ ٣، ص: ٤٠٦.

(٤)تفسير القرطبي،مرجع سابق،جـ ١٤،ص:٢٩١.

(٥)تفسير الألوسي،مرجع سابق،جـ ١٦،ص:٢٩٣.

(٦)نظم الدرر للبقاعي، مرجع سابق، جـ ٦، ص: ٤٩٠.

المشركين والمنتقل منه إلى العبرة بداود وسليمان والممثَّل لحال المشركين فيه بحال أهل سبا.

والجمع بين { صبار } و { شكور} في الوصف لإفادة أن واجب المؤمن التخلق بالخُلقين وهما: الصبر على المكاره، والشكر على النعم، وهؤلاء المتحدث عنهم لم يشكروا النعمة فيطروها، ولم يصبروا على ما أصابهم من زوالها فاضطربت نفوسهم وعمَّهم الجزع فخرجوا من ديارهم وتفرقوا في الأرض، ولا تسأل عما لاقوه في ذلك من المتالف والمذلات.

فالصبّار يَعتبر من تلك الأحوال فيعلم أن الصبر على المكاره خير من الجزع ويرتكب أخف الضررين، ولا يستخفه الجزع، فيلقي بنفسه إلى الأخطار، ولا ينظر في العواقب.

والشكور يعتبر بما أعطي من النعم، فيَزداد شكراً لله تعالى، ولا يبطر النعمة، ولا يطغى فيُعاقبَ بسلبها كما سلبت عنهم، ومن وراء ذلك أن يَحرمهم الله التوفيق. وأن يقذف بهم الخذلانُ في بنيات الطريق[1].

ويستخلص ابن عاشور الدروس المستفادة من تلك القصة، فيقول: وفي الآية دلالة واضحة على أن تأمين الطريق وتيسير المواصلات وتقريب البلدان لتيسير تبادل المنافع، واجتلاب الأرزاق من هنا ومن هناك نعمة إلهية ومقصد شرعي يحبه الله لمن يحب أن يرحمه من عباده كما قال تعالى: { وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً } [البقرة: ١٢٥] وقال: { وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات } [البقرة: ١٢٦] وقال: { وآمنهم من خوف }[قريش: ٤]، فلذلك قال هنا: { وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين } [سبأ: ١٨].

وعلى أن الإجحاف في إيفاء النعمة حقها من الشكر يعرّض بها للزوال وانقلاب الأحوال قال تعالى: { ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم

(١)التحرير والتنوير، مرجع سابق، جـ ١١، ص: ٣٧٧ ، ٣٧٨.

الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون } [النحل: ١١٢].

من أجل ذلك كله كان حقاً على ولاة أمور الأمة أن يسعَوا جهدهم في تأمين البلاد وحراسة السبل وتيسير الأسفار وتقرير الأمن في سائر نواحي البلاد جليلها وصغيرها بمختلف الوسائل، وكان ذلك من أهم ما تنفق فيه أموال المسلمين وما يبذل فيه أهل الخير من الموسرين أموالهم عوناً على ذلك، وذلك من رحمة أهل الأرض المشمولة لقول النبي صلى الله عليه وسلم « ارحموا من في الأرض يرحَمْكم من في السماء »[1].

وكان حقاً على أهل العلم والدين أن يرشدوا الأئمة والأمة إلى طريق الخير وأن ينبهوا على معالم ذلك الطريق ومسالكه بالتفصيل دون الإجمال، فقد افتقرت الأمة إلى العمل وسئمت الأقوال[2].

(١)الحديث أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب في الرحمة ٤/٢٨٧ ح ٤٩٤١ بسنده عن عبد الله بن عمر ــ ط دار الحديث ــ القاهرة
وأخرجه الترمذي في سننه كتاب البر باب ما جاء في رحمة المسلمين ٤/٣٢٣ ــ ٣٢٤ ح ١٩٢٤ بسنده عن عبد الله بن عمر .
وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح ط مصطفى الحلبي تحقيق إبراهيم عطوة وغيره

(٢)المرجع السابق، جـ ١١، ص: ٣٧٨.

الخاتمة

أوجز فيما يلي أهم النتائج التي سعيت إلى التوصل إليها من خلال هذا البحث، والتي تتلخص فيما يلي:

أولا: في القصص القرآني صفحات مضيئة، ومواقف رائعة، وعظات وعبر، وهداية ورحمة، وحجج ساطعة، وآيات بينة، تنطق بصدق هذا الكتاب المبين، الذي هو نمر متدفق، وبحر فياض بالعبر والعظات.

ثانيا: وقف الأثريون على آثار القصص القرآني الشاهدة على الصدق التاريخي مثل آثار سيل العرم الذي هدّم سد مأرب باليمن، فلا زالت آثار الجنتين الواقعتين عن يمين السد، وشماله ماثلة حتى اليوم تؤكد صحة قصة سبأ.

ثالثا: من نعم الله، ولطفه بالناس عموما – وبالعرب خصوصا – أنه قص في القرآن أخبار المهلكين، والمعاقبين، ومنهم من كان يجاور العرب، فيشاهدون آثاره، ويتناقلون أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة.

رابعا: قصة قوم سبأ تحكي قصة قوم أنعم الله عليهم، وأرسل إليهم الرسل، فكفروا وعصوا، فانتقم الله

منهم، وهي مَثَل ضربه الله تعالى لقريش، ليعلموا أنهم مثلهم إن كفروا، وقد جاءت عقب الحديث عن آل داود، وهم مَثَل للشاكرين لنعمة الله تعالى، لتكون الصورة متكاملة للشاكرين الحامدين، والكافرين الجاحدين.

ويمكننا أن نقارن بين آل داود الذين تذكروا دائما فضل الله عليهم، ورحمته بهم ولهجوا بحمد الله تعالى على ما أولاه من النعم، وأسداه من الكرم، ووظفوا تلك النعم في نشر الحق، والفضيلة في أرجاء الأرض، وبين قوم سبأ الذين اغتروا بجنتيهم، وجحدوا النعمة، وتمادوا في الضلال.

خامسًا: زمن تلك القصة كان بعد زمن نبي الله سليمان عليه السلام، وقيل إنهم كانوا في الفترة التي بين عيسى، ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

سادسًا: أصل سبأ كما ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو اسم لأبي اليمن كان رجلا من العرب، وله عشرة أولاد يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن؛ وبعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم، منهم مَنْ أقام ببلادهم، ومنهم مَنْ نزح عنها إلى غيرها، فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تيامنوا منهم فكندة، وحمير، والأزد، والأشعريون ومذحج وأنمار الذين منها خثعم، وبُجَيلة، وأما الذين تشاءموا؛ فعاملة، وجُذام، ولخم، وغسَّان.

سابعًا: قوم سبأ كانوا يسكنون جنوبي اليمن؛ وكانوا في أرض مخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم، وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادي بينهما سداً به عيون تفتح، وتغلق، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد، وتحكموا فيها وفق حاجتهم، فكان لهم من هذا مورد مائي عظيم، وكان هذا السد بمأرب، وهي بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل باسم « سد مأرب ».

وأول من بنى السد سبأ بن يشجب أول ملوك اليمن، واسمه عبد شمس، وهو حفيد جد العرب يعرب بن قحطان، ثم أتمه ابنه حمير

ثامنًا: تبدأ قصة قوم سبأ بوصف ما كانوا فيه من رزق، ورغد، ونعيم، فقد كانت بلادهم أخصب البلاد، وأطيبها، وأكثرها ثماراً حتى كانت المرأة

تضع على رأسها المكتل وتطوف فيما بين الأشجار فيمتلئ المكتل من غير أن تمس شيئاً بيدها، وكان الراكب يسير أكثر من شهر من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها، لا تواجهه الشمس، ولا يفارقها الظل، لاستتار الأرض بالأشجار، واستيلائها عليها، وإحاطتها بها، فكان أهلها في أطيب عيش، وأرفعه، وأهنأ حال، وأرغده، في نهاية الخصب، وطيب الهواء، وصفاء الفضاء، وتدفق الماء، وقوة الشوكة، واجتماع الكلمة.

وأنعم الله سبحانه وتعالى عليهم نعمة أخرى خارج بلادهم، وهي نعمة الأمن في الطريق، وتيسير سبل السفر لهم إلى القرى المباركة مسافات مقدرة بلا تعب،ولا كلل وتهيئة الأمان، والاطمئنان خلال سفرهم، فلا يخافون عدواً، ولا جوعاً، ولا عطشاً، وهى نعمة عظمى لا يدرك ضخامتها إلا من مارس الأسفار من مكان إلى آخر.

تاسعًا: لكن قوم سبأ أعرضوا عن الحقّ، وعن توحيد الله وعبادته، وشكره على ما أنعم به عليهم، فعدلوا إلى الشرك، وكفروا بالله تعالى، وكذّبوا رسله، وأنبياءه، ولم يشكروا نعمة الله، وجحدوا، وبطروا النعمة، وسئموا الراحة، وطلبوا المباعدة بين أسفارهم، والكد، والتعب في الأسفار

عاشرًا: وجاءهم العقاب من الله تعالى، فأرسل عليهم سيل العرم الذي كان محبوساً بالسد في مأرب، فهدم السيلُ سدهم، واندفع ما فيه من الماء، فأغرق أرضهم، وأذهب الله تلك القرى، والجنات، وأبدلهم مكان بساتينهم من الفواكه، والثمار، والأعناب، أشجارًا من الأراك، والأثل، والقليل من سدر، وتبدلت أرضهم من جنان وارفة، وخضرة ناضرة إلى خراب، ودمار، وتحول أهلها عن الأرض، والديار، وتلك عاقبة الظالمين.

حادي عشر: تفرق قوم سبأ تفرقا مشهورًا؛ إذ حملهم خراب السد، وقحولة الأرض إلى مفارقة الأوطان مفارقة وتفريقاً ضربَت به العرب المثل في قولهم: ذهبوا، أو تفرقوا أيدي سبا. وذلك لا يخلو من خذلان من الله تعالى سلبهم التفكر في العواقب، فاستخفّ الشيطان أحلامهم، فجزعوا من انقلاب حالهم، ولم يتدرّعوا بالصبر حين سلبت عنهم النعمة، ولم يجأروا إلى الله بالتوبة، فبعثهم الجزع، والطغيان والعناد وسوء التدبير من رؤسائهم على أن فارقوا

أوطانهم عوضاً من أن يلموا شعثهم، ويرقعوا خرقهم، فتشتتوا في الأرض، ولا يخفى ما يلاقون في ذلك من نصب وجوع، ونقص من الأنفس، والحمولة، والأزواد، والحلول في ديار أقوام لا يرْثُون لحالهم.

ثاني عشر: ذكر كثير من المفسرين أخبارًا ترد انهيار السد إلى حفر الجرذان وأشار بعضهم إلى أن ذلك من الخرافات التي لا تصح، والحقيقة أنه لا يعرف وقت انهدام هذا السد، ولا أسباب ذلك بالتحديد، والظاهر – كما ذكر بعض المفسرين – أن سبب انهدامه اشتغال ملوكهم بحروب داخلية بينهم ألهتهم عن تفقد ترميمه حتى تخرب، أو يكون قد خربه بعض من حاربهم من أعدائهم.

ثالث عشر: في الآية دلالة[1] واضحة على أن تأمين الطريق، وتيسير المواصلات وتقريب البلدان لتيسير تبادل المنافع، واجتلاب الأرزاق من هنا، ومن هناك نعمة إلهية ومقصد شرعي يحبه الله لمن يحب أن يرحمه من عباده، من أجل ذلك كله كان حقاً على ولاة أمور الأمة أن يسعَوا جهدهم في تأمين البلاد، وحراسة السبل، وتيسير الأسفار وتقرير الأمن في سائر نواحي البلاد جليلها، وصغيرها بمختلف الوسائل، وكان ذلك من أهم ما تنفق فيه أموال المسلمين، وما يبذل فيه أهل الخير من الموسرين أموالهم عوناً على ذلك.

رابع عشر: من أكبر أسباب زوال النعمة كفرانها، فعدم شكر المنعم يعرِّض النعمة للزوال وانقلاب الأحوال، قال تعالى: { ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون } [النحل: ١١٢]. وليحذر العبد من كفر النعم بالإسراف فيها وصرفها في غير مرضاة الله واهبها عز وجل، وليحذر من الإعراض عن دين الله، فإنه متى حصل لأمة نزلت بها النقم، وسلبها الله النعم، وكم هذه الحال مشاهدة هنا، وهناك لا بين الأمم، والشعوب فحسب، بل حتى بين الأفراد.

خامس عشر: بالشكر تدوم النعم، فمن شكر الله تعالى على نعمه فقد حافظ عليها، وشكر الله تعالى يكون

(١) سورة سبأ الآية رقم ١٥ : { لقد كان لسبأ في مسكنهم آية .... }

بطاعته، واجتناب معاصيه.

سادس عشر: على العبد أن يكون شاكرًا لله على نعمه إذا أنعم عليه، وأن يكون صابرًا على محنته إذا امتحنه ببلاء.

وإلى هنا ينتهي حديثنا عن هذه القصة، وأسأل الله عز وجل أن أكون قد وفقـــت في عرضها واستخلاص ما منَّ الله عليَّ به من فوائد ، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل .

مراجع البحث

١- برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية.

٢- أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني: المسند، مؤسسة قرطبة- القاهرة.

٣- الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله: الحجة في القراءات السبع، دار الشروق – بيروت، ط ٤، ١٤٠١هـ، تحقيق : د. عبد العال سالم مكرم.

٤- أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي: السبعة في القراءات، دار المعارف – القاهرة، ط ٢، ١٤٠٠، تحقيق د.شوقي ضيف، جـ١، ص: ٥٢٨.

٥- أبو طاهر إسماعيل بن خلف بن سعيد النحوي المقرئ : العنوان في القراءات السبع. (ليس على الكتاب بيانات طبع)

٦- أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي : تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٧- أبو محمد الحسين بن مسعود

البغوي: معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر وآخران، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧م.

٨- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية مطبعة مصطفى محمد ـ القاهرة ـ بدون تاريخ طبع .

٩- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.

١٠- عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المجمع العلمي بفاس- المغرب، دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٣٩٥ هـ.

١١- د . عبد الراضي محمد عبد المحسن: الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم.

١٢- عبد الرحمن بن جلال الدين السيوطي: الدر المنثور، دار الفكر - بيروت ، ١٩٩٣م.

١٣- عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي: الروض الأنف شرح السيرة النبوية للإمام المحدث عبد الرحمن السهيلي المولود ٥٠٨ هـ والمتوفى ٥٨١ هـ دار الكتب الحديثة دون سند طبع .

١٤- عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي - بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.

١٥- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : تاريخ ابن خلدون. ت ٨٠٨ هـ طبعة دار الكتاب اللبناني ١٩٨١م.

١٦- عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة: حجة القراءات، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢، تحقيق : سعيد الأفغاني.

١٧- عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

١٨- عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد القطان: الدرر في تفسير القرآن؟.

١٩- عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكتاب العربي- بيروت، ١٤٠٢ هـ.

٢٠- عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل؟.

٢١- أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل.

٢٢- أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي: النكت والعيون، دار الصفوة- مصر، ١٤١٣ هـ.

٢٣- عمر بن علي عادل الحنبلي: اللباب في علم الكتاب؟.

٢٤- أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

٢٥- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي: الجامع الصحيح، تحقيق: د.مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة- بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٢٦- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق : أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م.

٢٧- محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط؟ .

٢٨- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس ، د.ت.

٢٩- محمد بن على بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط البابي الحلبي - مصر، ١٣٥٠ هـ .

٣٠- فخر الدين محمد بن عمر الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار الفكر، ١٤٠٥هـ.

٣١- أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي: الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٣٢- أبو السعود محمد بن محمد العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٣- أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي: البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٤١١ هـ .

٣٤- أبو الفضل محمود الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٥- محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل

وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط ٣ ، دار الريان للتراث سنة ١٤٠٧ هـ .

٣٦- الواحدي النيسابوري: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، دار الكتب العلمية- بيروت.

٣٧- ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، دار الفكر - بيروت.

الفهـــرس

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	١٢٩٥
مناسبة القصة لما قبلها من السورة	١٢٩٧
زمن القصة	١٣٠٠
أصل سبأ	١٣٠١
بناء سد مأرب	١٣٠٥
قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ..﴾[سبأ:١٥].	١٣٠٧
قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ... ﴾[سبأ:١٦-١٧]	١٣١٧
قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا... ﴾[سبأ : ١٨]	١٣٣٠
قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا... ﴾[سبأ : ١٩]	١٣٣٧
الخاتمة	١٣٤٩
قائمة المراجع والمصادر.	١٣٥٣
الفهرس	١٣٥٦